

أريني الله

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

أرني الله

قصص فلسفية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتيننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـة فى أمريكـا بدار نشر (ثرى كنتننتـزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكـم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـة فى أمريكـا بدار نشر (ثرى كنتننتـز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .



أرني الله

كان في سالف العصر والأوان رجل طيب السريرة صافي الضمير ، رزقة الله طفلا ذكي الفؤاد ذلق اللسان .. فكانت أمتع لحظاته ساعة يجلس إلى طفله يتحادثان كأنهما صديقان ... فيلحظ كأن فارق السن وفاصل الزمن يرتفع من بينهما كستارة وهمية من حرير فإذا هما متفقان متفاهمان ، لهما عين العلم وعين الجهل بحقائق الوجود وجواهر الأشياء ...

نظر الرجل يوماً إلى طفله وقال :

ـــ شكراً لله ! ... أنت لي نعمة من الله ! ...

فقال الطفل :

ـــ إنك يا أبت تتحدث كثيراً عن الله .. أرني الله ! ...

ـــ ماذا تقول يا بني ؟! ...

لفظها الرجل فاغر الفم ، ذاهل الفكر ، فهذا طلب من الطفل غريب لا يدري بم يجيب عنه .... وأطرق ملياً .. ثم التفت إلى ابنه مردداً كالمخاطب نفسه :

ـــ تريد أن أريك الله ؟ ...

— نعم ... أرنى الله ! ...

— كيف أريك ما لم أره أنا نفسى ؟! ...

— ولماذا يا أبت لم تره ؟ ...

— لأنى لم أفكر فى ذلك قبل الآن ...

— وإذا طلبت إليك أن تذهب لتراه ... ثم ترينى إياه ؟ ...

— سأفعل يا بنى ... سأفعل ...

ونهض الرجل .. ومضى لوقته وجعل يطوف بالمدينة يسأل الناس عن بغيته ، فسخروا منه ، فهم مشغولون عن الله ومشاهدته بأعمالهم الدنيوية .. فذهب إلى رجال الدين فحاوروه وجادلوه بنصوص محفوظة ، وصيغ موضوعة ... فلم يخرج منهم بطائل ... فتركهم يائساً ... ومشى فى الطرقات مغموماً يسائل نفسه : أيعود إلى طفله كما ذهب خاوى اليد مما طلب ؟ ... وأخيراً عثر بشيخ قال له :

— « اذهب إلى طرف المدينة تجد ناسكاً هرماً لا يسأل الله شيئاً إلا استجاب له ... فربما تجد عنده بغيتك ! ...

فذهب الرجل تواً إلى ذلك الناسك وقال له :

— جئتك فى أمر أرجو أن لا تردنى عنه خائباً ...

فرفع إليه الناسك رأسه بصوت عميق لطيف :

— اعرض حاجتك ! ...

— أريد أيها الناسك أن تريني الله ! ...

فأطرق الناسك وأمسك لحيته البيضاء بيده وقال :

— أتعرف معنى ما تقول ؟ ...

— نعم ... أريد أن تريني الله ! ...

فقال الناسك بصوته العميق اللطيف :

— أيها الرجل ! ... إن الله لا يرى بأدواتنا البصرية ... ولا يدرك بحواسنا الجسدية .. وهل تسبر عمق البحر بالأصبع التى تسبر عمق الكأس ؟! ...

— وكيف أراه إذن ؟ ...

— إذا تكشف هو لروحك ...

— ومتى يتكشف لروحى ؟ ...

— إذا ظفرت بمحبته ...

فسجد الرجل وعفر التراب جبهته وأخذ يد الناسك وتوسل إليه قائلا :

— أيها الناسك الصالح ... سل الله أن يرزقنى شيئاً من محبته ...

فجذب الناسك يده برفق وقال :

— تواضع أيها الرجل واطلب قليل القليل ...

— فلأ طلب إذن مقدار درهم من محبته ...

— يا للطمع ! ... هذا كثير ... كثير ...

— ربع درهم إذن ؟ ...

— تواضع ... تواضع ...

— مثقال ذرة من محبته ...

— لا تطيق مثقال ذرة منها ...

— نصف ذرة إذن ؟ ...

— ربما ...

ورفع الناسك رأسه إلى السماء وقال :

— يا رب .. ارزقه نصف ذرة من محبتك ! ...

وقام الرجل وانصرف ... ومرت الأيام ، وإذا أسرة الرجل وطفله وأصحابه يأتون إلى الناسك ويفضون إليه بأن الرجل لم يعد إلى منزله وأهله منذ تركه ، وأنه اختفى ولا يدرى أحد مكانه ... فنهض معهم الناسك قلقاً ، ولبثوا يبحثون عنه زمناً إلى أن صادفوا جماعة من الرعاة قالوا لهم : إن الرجل جُن وذهب إلى الجبال ودلوهم على مكانه ... فمضوا إليه فوجدوه قائماً على صخرة ... شاخصاً ببصره إلى السماء فسلموا عليه

فلم يرد السلام ... فتقدم الناسك إليه قائلا :

ـــ انتبه إلىّ ... أنا الناسك ... فلم يتحرك الرجل ؛ فتقدم إليه طفله جزعاً ، وقال بصوته الصغير الحنون :

ـــ يا أبت ... ألا تعرفنى ؟ ...

فلم يبد حراكاً ... وصاحت أسرته وذووه من حوله محاولين إيقاظه ، ولكن الناسك هز رأسه قانطا وقال لهم :

ـــ لا جدوى ! ... كيف يسمع كلام الآدميين من كان فى قلبه مقدار نصف ذرة من محبة الله !؟ ... والله لو قطعتموه بالمنشار لما علم بذلك ! ...

وأخذ الطفل يصيح ويقول :

ـــ الذنب ذنبى ... أنا الذى سألته أن يرى الله ! ...

فالتفت إليه الناسك وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ أرأيت ؟ ... إن نصف ذرة من نور الله تكفى لتحطيم تركيبنا الآدمى وإتلاف جهازنا العقلى ! ...

الشهيد

دقت أجراس الكنائس ونواقيس الكاتدرائيات احتفالا بعيد الميلاد ، وسرى رنينها فى جسد روما كما يسرى الروح العلوى فى أبدان الرهبان ... فى تلك اللحظة هبط المدينة شخص غريب يمشى نحو الفاتيكان ... وهو يرهف السمع إلى تراتيل الأناجيل ترتفع فى كل مكان : «العذراء تحبل وتلد ابناً ... وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ... » وكانت أصوات الأرغن تحملها إلى أذنيه صادحة بألحان « أوراتوريو المسيح » لهاندل و « أوتوريو الميلاد » لجوهان سباستيان ... آيات من الموسيقى الدينية تشيد كلها بعيسى إذ جاء يحمل إلى الإنسانية التى نخرت فيها الأنانية ، ناموس الحب الذى يطهرها من الآثام ...

وبلغت التراتيل هذه الفقرة من الأناجيل : « قال له إبليس إن كنت ابن الله ، فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ... فأجابه يسوع قائلا : أن ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان ... بل بكل كلمة

تخرج من فم الله ... فأخذه إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لى ... حيئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان ... إنه مكتوب : « للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد ! ... »

هنا انطلقت من الشخص الغريب زفرة ، وصاح فى أعماق نفسه : « ليتنى أطعته فى ذلك الحين ! ... »

وكان قد وصل إلى قصر « البابا » فطلب المثول بين يديه للفور ، ولم يكن من الهين الوقوف فى طريق ذلك الشخص ... لقد كان فى عينيه شبه قوة لا تصد وأمر لا يرد ... لم يستطع أحد اعتراض سبيله ... لا القساوسة ولا الكرادلة ... فتحت أمامه الأبواب ، فدخل مطرقا خاشعاً إلى مقر رئيس الكنيسة ...

وسدد البابا إليه البصر ، ورآه فى صورة رجل ، فقال له بصوت مرتجف :

ـــ أنت ؟! ...

ـــ نعم أنا ...

ـــ وماذا تريد منى ؟ ...

ـــ الدخول فى حظيرة الإيمان ...

ـــ ماذا تقول أيها اللعين ؟! ...

لفظها البابا هامساً ، وهو كالغارق فى ذهول ... ولكن الزائر الغريب بادر بصوت ممتلئ بالصدق ، ملتهب بالإخلاص يقول :

ـــ ما عدت أستحق هذا الوصف .. إنى جئت إليك لأتوب ... والويل لى إن كنت تهزأ بى أو تشك فى قولى ... لكل شىء نهاية ... وكان لا بد لى أن أبصر الحق ذات يوم ، وأن أعود إلى الصواب .. كان من المحتوم أن أحن إلى صدر الله يوما ، وأن أزهد فى تلك الحرب الطويلة التى لا نفع فيها ، وأن أهجر الإصرار والعناد، وأن أعاف مائدة الشر، وأن أتوق إلى طعم الخير ... نعم ... خذوا منى ما تريدون ... عذبونى أشنع العذاب .. أوقعوا بى أفظع العقاب ، ولكن برب السموات لا تحرمونى مذاق الخير لحظة ... ما طعم هذا الشىء الذى تسمونه « الخير » ، وتملكونه أنتم وتحبسونه عنى !؟ ... لقد عشت منذ الأزل .. طالما كابرت ، وطالما تكبرت ... طالما صمدت ، وطالما صبرت،طالما قلت إن ما فى يدى هو كل شىء ، وإنى أكفى ذاتى بذاتى ، لا حاجة بى إلى غير ما أملك لنفسى ولمن يتبعنى فى مملكتى .. وما من أحد لم يتبعنى برهة من الزمن ... رعيتى فى كل مكان .. حتى هنا بين تلك الجدران ... على الرغم من المسوح والصلبان ، ولكن ما قيمة ذلك الملك العظيم ما دمت أحس

الحرمان ، أنقذونى بربكم .. أذيقونى الخير مرة ثم ألقوا بى فى الجحيم ... لقد ألقيت السلاح ونبذت الكفاح ... ما أنا إلا مؤمن ... ذلك كل مطمحى الآن ... أن أصبح واحداً من هؤلاء المؤمنين الخيرين ، ممن تعج بهم الساعة البِيَع والكنائس ، ساجدين للرب مرتلين الأناجيل ، فرحين بعيد السيد المسيح ، مرددين أقواله مشيدين بأفعاله ... أيها البابا يا وكيل المسيح ... جئت أركع عند قدميك لتعمدنى بيديك ، وتدخلنى فى الدين ، وسترانى من خيرة أبناء الكنيسة الأبرار المخلصين ...

اهتز البابا فى عرشه لهذه النبرات الحارة الصادقة ... ولكنه لم يكف عن الهمس والدهش ...

ـ أنت ؟ .. أنت إبليس ... تدخل الآن فى الدين ؟ ...

ـ ولم لا ؟ ... ألم يجىء فى كلام المسيح :

« أقول إنه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة » ...

هل فرق المسيح بين شخص وشخص ؟ ... إليس الجميع أمام المغفرة سواء ؟ ... لم تغلقون فى وجهى سبل التوبة ؟ ... إنى أتوب ... أدخلونى فى الدين ... استمعوا إلى ما انبثق فى قلبى من إيمان ! ...

وقع البابا فى حيرة ... واضطرب وارتعد للفكرة ... وصاح كالمخاطب نفسه ... « لا ... لا ... لا أستطيع هذا .... » ...

وكان الأرغن يعزف أنغام ذلك « الميس » للبابا مارسيلوس من وضع الموسيقى القديم « بالسترينا » فرفعت فوق أجنحتها مخيلة البابا إلى آفاق من الأفكار : إذا آمن إبليس ، ففيم إذن بعد اليوم مجد الكنيسة ؟ ... وما مصير الفاتيكان ومتاحفه وتحفه ومخلفاته الدينية الكبرى ؟! ... كل شيء يفقد معناه وتذهب روعته وتولى مقاصده كنيسة « سكستين » التى تزينها تصاوير ميكايل أنجلو عن : « غواية حواء » ، « الأنبياء » ، « الطوفان » ، يوم الحساب الأخير » ، ولوحات القاعات والمقاصير من ريشة روفائيل عن « خلق الله النور » ، « والخروج من الفردوس » و « تعميد المسيح » ...

إن إبليس هو محور الكتاب المقدس بعهده « القديم والجديد» كيف يمحى من الوجود دون أن تمحى كل تلك الصور والأساطير والمعانى والمغازى التى تعمر قلوب المؤمنين وتفجر خيالهم ؟ ... ما معنى « يوم الحساب » إذا محى الشر من الأرض ؟ ... وهل يحاسب أتباع الشيطان الذين تبعوه قبل إيمانه ، أم تمحى سيئاتهم ما دامت توبة إبليس قد قبلت ؟ ... ثم ما مصير العالم وقد خلا من

الشر ؟ ... هذه الحروب التي جعلت من أوروبا المسيحية سيدة البشر ؟ ... وهذه المنافسات الروحية والمنازعات الذهنية والمادية التي أوقد احتكاكها شرارة الفكر وضوء العلوم ؟! ... لا ... إن الأمر خطير ... وليس من حق البابا أن يفصل فيه .. إن تحطيم الشر وفصله من الدنيا ، سيحدثان انفجاراً لن يدرك الذهن له مدى ...

رفع البابا رأسه ، والتفت إلى إبليس بحرج وضيق :

ـــ ولماذا جئتني أنا دون غيري ؟ ... لماذا اخترت المسيحية دون بقية الأديان ؟ ...

ـــ هذا الاحتفال بعيد السيد المسيح ذكرني وألهمني ...

ـــ أصغ إليّ يا ... لست أدري بماذا أناديك ؟ ... أرأيت ؟ ...حتى اسمك بعد توبتك سيثير إشكالا ! ... كلا ! ... إن الكنيسة ترفض طلبك ... اذهب إذا شئت إلى دين آخر ...

وولاه ظهره ...

* * *

خرج الشيطان من الفاتيكان خائباً ذليلا ... ولكنه لم يفقد الأمل .. إن أبواب الله كثيرة ، فيلجأ إلى باب آخر ... ويمم شطر

حاخام اليهود ...

استقبله الرئيس الإسرائيلى كما استقبله الرئيس المسيحى واستمع طويلا إلى أمنيته ... ثم التفت إليه وقال :

ـــ تريد أن تكون يهودياً ؟ ...

ـــ أريد أن أصل إلى الله ...

فتأمل الحاخام قوله ملياً ... إذا عفا الله عن إبليس ومحى الشر من الأرض ... ففيم إذن التمييز بين شعب وشعب ؟ ... بنو إسرائيل شعب الله المختار .. لن يكون بعد اليوم مبرر لاختيارهم دون بقية الشعوب ، ولامتيازهم على بقية الأجناس ... حتى السيطرة المالية التى صارت إليهم منذ أجيال ستذهب عنهم بذهاب الشر عن النفوس .. وزوال الجشع وموت الطمع ، وفناء الأثرة والحرص والأنانية ... إيمان إبليس سيدك صرح التفوق اليهودى ... ويهدم مجد بنى إسرائيل ....

ورفع الحاخام رأسه ، وقال بنبرة استهزاء :

ـــ ليس من عادتنا التبشير ، والاهتمام بأن يدخل فى ديننا الغير ... حتى ولو كان إبليس ! ... اذهب عنا إلى دين آخر ...

* * *

فخرج إبليس من عنده مخفقاً مرذولا ... ولكنه لم يقنط، لم يزل أمامه باب : هو دين الإسلام ...

واتجه لوقته إلى شيخ الأزهر ...

واستقبله شيخ الأزهر ... وأصغى إلى قوله وما يسعى إليه ... ثم التفت إليه وقال له :

ــ إيمان الشيطان عمل طيب ! ... ولكن ...

ــ ماذا ؟ ... أليس من حق الناس أن يدخلوا فى دين الله أفواجا ؟ ... أليس من آيات الله فى كتابه الكريم :

«فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » ؟ ...

هأنذا أسبح بحمده وأستغفره ، وأريد أن أدخل فى دينه خالصا مخلصاً ، وأن أسلم ويحسن إسلامى ، وأكون نعم القدوة للمهتدين ! .

وتأمل شيخ الأزهر العواقب ، لو أسلم الشيطان ، فكيف يتلى القرآن ؟ ... هل يمضى الناس فى قولهم : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ ... » لو تقرر إلغاء ذلك لاستتبع الأمر إلغاء أكثر آيات القرآن ... فإن لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لمما يشغل من كتاب الله قدراً عظيما ... كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل إسلام الشيطان دون أن يمس بذلك كيان الإسلام كله ؟! ...

رفع شيخ الأزهر رأسه ونظر إلى إبليس قائلا :

ـــ إنك جئتنى فى أمر لا قبل لى به ... هذا شيء فوق سلطتى ، وأعلى من قدرتى ... ليس فى يدى ما تطلب ... ولست الجهة ... التى تتجه إليها فى هذا الشأن ...

ـــ إلى من أتجه إذن ؟ ... ألستم رؤساء الدين ؟ ... كيف أصل إلى الله إذن ؟ ... أليس يفعل ذلك كل من أراد الدنو من الله ؟! ...

ـــ نعم ... ولكنك لست مثل الآخرين ...

ـــ لماذا ؟ ... إنى لم أرد أن أميز نفسى عن الآخرين ... لم أرد الارتفاع مباشرة إلى السموات العلى أحادث الملائكة وأقابل الأنبياء .. كان ذلك فى مقدورى ، ولكنى أبيت الاعتصام بقدرتى والاعتزاز بشخصيتى ... لم أشأ طرق باب السماء بصولجان كما يطرقها ملك ... وإن كان ملك الشر ... لم أشأ جلجلة السماء بضجيجى ولا زلزلة الأعالى بصياحى ، وأنا أضع سيفى وأسلم سلاحى ... وأخضع كما يخضع تاج لتاج ... ولكنى أردت أن أدخل باب الدين كمسكين ... وأن أزحف على ركبتى معفراً رأسى الملكى بتراب الذل ، ملتمساً الهداية والمغفرة من البيع والكنائس والمساجد كما يلتمسها أحقر البشر وأضعف الآدميين ...

أطرق شيخ الأزهر لحظة ... وهرش لحيته ثم قال :

ـــ نية طيبة ولا ريب ! ... لكن .... على الرغم من ذلك أصارحك أن اختصاصى هو إعلاء كلمة الإسلام ، والمحافظة على مجد الأزهر ، وأنه ليس من اختصاصى أن أضع يدى فى يدك ...

ـــ لك الشكر ...

* * *

قالها إبليس بذلة ومسكنة ... وخرج واليأس ملء نفسه ... ومشى فى طرقات الأرض على غيرى هدى ... ينظر إلى براءة الأطفال فيذوب قلبه حناناً إلى كل شىء طاهر برىء ... ويرى الخير فى أعمال الطيبين من الناس فيتحرق شوقاً إلى كل خير .... ويطالع ثمار الصلاح والتقوى والإيمان ، معروضة فى قلوب الأخيار المؤمنين ، كأنها فى واجهات الحوانيت ... يمد إليها يداً قاصرة عاجزة ، ويشيعها بنظرة ملتاعة والهة ... الحرمان من الخير ... تلك هى النقمة الكبرى التى صبت على الشيطان ! ...

وصاح صيحة ألم بددت السحب ، ونفذت إلى السماء ... ولم يطق صبراً ... فانتفض انتفاضة من كادت روحه تزهق ... وتجرأ وصعد إلى الأعالى ...

دق بيديه أبواب السماء دقاً ... وطرق بروجها طرقاً ، وقد

طار صوابه ، كأنه شحاذ صائم يقرع بابا من أجل لقمة عند الغروب .....

فظهر له الملاك جبريل :

— ماذا تريد ؟ ...

— التوبة ...

— الآن ؟! ...

— هل جئت متأخراً ؟ ...

— بل جئت قبل الأوان ... ليس لك الساعة أن تغير النظام الموضوع ... ولا أن تقلب ما استقر من أوضاع ... عُد من حيث أتيت ، وعش فى الأرض كما عشت ...

— أنت أيضاً ؟ ... آه ... ما عدت أستطيع ... أذيقونى الخير ! ...

— الخير محظور عليك ، إياك أن تمد إليه يداً ...

— شجرة محرمة ؟ ...

— عليك نعم ... ولن تجد ما يعينك على عصيان هـذا الأمر ... كما عاونتك حواء من قبل ... يوم أذاقت آدم من شجرة الشر ! ...

— أليست هناك رحمة ومغفرة ؟! ...

ـــ ليس للرحمة ولا المغفرة أن تمسا نظام الخليقة ...

ـــ ما أنا إلا حقير فى المخلوقات !...

ـــ نعم ... ولكن زوالك من الأرض يزيل الأركان ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح ويخلط القسمات ، ويمحو الألوان ... ويهدم السمات ؛ فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة ... ولا للحق بغير الباطل... ولا للطيب بغير الخبيث ولا للأبيض بغير الأسود ... ولا للنور بغير الظلام ؛ بل ولا للخير بغير الشر ؛ ـــ بل إن الناس لا يرون نور الله إلا من خلال ظلامك ... وجودك ضرورى فى الأرض ما بقيت الأرض مهبطاً لتلك الصفات العليا التى أسبغها الله على بنى الإنسان ! ...

ـــ وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ؟! ... نفسى المعتمة يجب أن تظل هكذا لتعكس نور الله ! .. سأرضى بنصيبى الممقوت من أجل بقاء الخير ، ومن أجل صفاء الله ... ولكن ... هل تظل النقمة لا حقة بى واللعنة لا صقة باسمى ، على الرغم مما يسكن قلبى من حسن النية ونبيل الطوية ...

ـــ نعم ... يجب أن تظل ملعوناً إلى آخر الزمان ... إذا ما زالت اللعنة عنك زال كل شىء ...

ـــ عفوك يا ربى ! ... لماذا أحمل هذا الوقر العنيف ؟! ...

لماذا كتب عليّ هذا القدر المخيف ؟ ... لماذا لا تجعل منى الآن ملاكا بسيطاً من ملائكتك ، يباح له حبك وحب نورك ، ويثاب على هذا الحب بالعطف منك والحمد من الناس ؟ ... هأنذا أحبك حباً لا مثيل له ولا شبيه ... حباً يستوجب منى هذه التضحية التى لم تدركها الملائكة ولم يعرفها البشر ... حباً يقتضينى الرضا بارتداء ثوب العصيان لك ، والظهور فى لبوس المتمرد عليك ... حباً يستلزم منى احتمال لعنتك عليّ ولعنة الناس ... حبا لا تسمح لى حتى بشرف ادعائه ، ولا بفرح الانتساب إليه ... حباً يستلزم منى احتمال لعنتك عليّ ولعنة الناس ... حبا إذا كتمه النساك ملأ صدورهم نوراً ... وأنا أكتمه ، ولكن نوره يأبى من صدرى اقتراباً ...

وبكى إبليس ...

وإذا دموعه تتساقط على الأرض... لا قطرات من ماء السحب؛ بل قطعاً من النيازك المعتمة وأحجار الشهب!...

فبادر جبريل مرتاعاً يسكنه :

ــ حسبك!... إنها تتساقط على غير هدى فوق رؤوس العباد!..

فكف إبليس فى الحال عن البكاء ، وقال بمرارة أليمة وكأنه يخاطب نفسه :

ـ نعم ... حتى عبراتى كوارث ! ...

وكفكف من دمعه متجلداً ... ولطف جبريل من لهجته قائلا :

ـ تحمل مصيرك ... وقم بواجبك ، وامض فى مهمتك ، لا تتململ ولا تتوجع ولا تثر ....

ـ أثور ؟ ... لو أنى أردت الثورة حقاً لثرت وعصيت وخرجت على النظام ، وشققت عصا الطاعة بمجرد صمتى لحظة ، ووقوفى عن أداء مهمتى برهة ... وامتناعى عن إيحاء الشر دقيقة ... ولكانت الأرض الآن يا جبريل كما وصفت :

مهدمة الأركان ... مزلزلة الجدران ... ولكنى أحب ، ولست أثور .. وحبى لله وحده سر هذا التماسك فى بناء أرضه ! ... وسر هذا التناسق فى قوانينه ونظمه ! ....

ـ اسمع نصحى ... عد إلى عملك ! ...

ـ سأعود متدثراً بعباءة لعنتى ... دون أن أدرى متى أخلعها ؟ ...

إن الممثلين على الأرض يرتدون أحياناً أدوار الخيانة والغدر ... وهم يعلمون أن لخلعها ساعة موقوته يعودون بعدها شرفاء أطهاراً ... وقد رد إليهم الاعتبار ... أما أنا ؟! ...

— اهبط الأرض وتحمل ... من يحب فليتحمل ! ...

— إنى أفعل أكثر من الاحتمال ... إن من يمت فى معركة من أجل الله يكتب عنده فى الشهداء ... وأنا أتحمل فى سبيله أكثر من الموت ... ليتها كانت معركة ... ليته كان الموت ... ليتنى كنت من جنوده ...

يجب أن أعيش لأخالف من أحب ! ... إنى أمقت نفسى وألعنها فى كل لحظة مرات ... لا أستطيع أن أموت .. حتى أقتل نفسى أو أدفع بها إلى القتل فى سبيل الله ! ... ولكنى أنزل بها من صنوف الكره وضروب البغض ما هو أبشع من القتل ، وليس لى مع ذلك أن أتطلع إلى رحمة ، ولا أن أطمح إلى مغفرة ، ولا أن أطمع فى أن أسلك فى عداد المجاهدين ...

ولمح جبريل فى عينيه تلك القطرات تترقرق ... فعاجله قائلا :

— لا تبك ... لا تبك ! ... لا تنس أن عبراتك كوارث ، وضحكاتك كوارث ... لا تكثر من الانفعال رحمة بالناس ... اذهب ، واصبر والزم الاعتدال ...

أطرق إبليس ملياً ... وفكر طويلا ... ثم تحرك أخيراً وهو يقول فى شبه همس :

ـــ صدقت ! ...

* * *

وترك السماء مذعنا ... وهبط الأرض مستسلماً ... ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت صداها النجوم والأجرام فى عين الوقت ؛ كأنها اجتمعت كلها معها لتلتقط تلك الصراخة الدامية :

ـــ إنى شهيد ! ... إنى شهيد ! ...

موزع البريد

عرفته على شاطىء البحر ... ذلك الشخص الغريب الذى يحمل محفظة كمحافظ موزعى مصلحة البريد... كل شيء فيه ينم عن الكسل والاسترخاء والغباء ... حتى نظرته إلى الفضاء ، كانت نظرة المخبول الشائعة الخائرة ... وجلسته كانت جلسة المتعب المرهق الضجر من نفسه ومن الدنيا ... لقد خيل إلى أن قاموس هذا الشخص لا يحوى غير كلمة واحدة « أف » ! ...

دنوت منه وقلت له برفق :

ــ إذا لم يخب ظنى فأنت موزع بريد فى الإجازة ...

ــ إجازة ! ...

لفظها الرجل دون أن يلتفت إلى ، وفى شبه ضحكة غيظ مكتوم ... فقلت له :

ــ ولم لا ؟ ... أليس من حقك أن تنال إجازتك

الأسبوعية ...

— إنى لم أنل إجازة يوماً واحداً طول حياتى ...

— يا لظلم مصلحة البريد ! ... أو ليس فيها نظام للإجازات ؟! ...

— مصلحة بريد لا تعرف الإجازات يا سيدى ! ...

— ماذا تقول ! ...

— تصور يا سيدى الفاضل أنى أقوم فى كل يوم مع الفجر والطير ؛فآخذ محفظتى مملوءة منتفخة برسائل عدد هذا الرمل ، كل من على الأرض له فيها رسالة ... وعلى أنا أن أطوف بكل مخلوق أسلمه واحدة ... بالعدل والقسطاس ... إلى أن ينتهى اليوم ... وبا نتهائه يجب أن تفرغ المحفظة ... لتملأ فى اليوم التالى من جديد برسائل جديدة ... توزع على الناس واحدة واحدة ... بالعدل والقسطاط ، وهكذا دواليك ... لا الأيام تنتهى ، ولا الناس تفنى ، ولا المحفظة تفرغ ... لا شىء يفرغ غير صبرى ... ولكن ما حيلتى ؟ ... لا بد لى من العمل ... وإلا تراكمت على رسائل يومين ... فأقع فى حيص بيص ...

— يا للعجب ! ... أولا يوجد فى المصلحة موزعون غيرك ...

— لا يوجد غيرى ... أنا كل المصلحة ...

— أهو إهمال أو سوء إدارة ؟! ...

— لست أدرى ... لطالما تظلمت من كثرة العمل فذهبت صيحاتى فى الهواء ؛ وانتهى بى الأمر إلى ما ترى من التواكل وقلة الاكتراث ...

— وهل تتمكن من توزيع هذه الرسائل فى يومك ؟! ...

— إنى أوزعها حيثما اتفق ، ولا يطالب إنسان بأكثر مما يستطيع ... ولم أر أحداً حاسبنى على خطأ ارتكبته ... ولا بد أنى ارتكبت بالضرورة كثيراً من الأخطاء ... المهم هو أنى لا أرجع آخر الأمر برسالة واحدة فى محفظتى ...

* * *

قالها وهو يفتح محفظته كأنما تذكر وجودها ... فأبصرت فيها حقا عدد الرمل من الرسائل ... فقلت له مرتاعاً :

— متى توزع كل هذا ونحن الآن فى الضحى ؟! ...

— لا تخش علىّ ... سأفعل ما أفعله كل يوم ...

ومد يده إلى صياد بقربنا ظل من مطلع الصبح لا يصطاد شيئاً ... فدس في جيبه عشرا من الرسائل ... فإذا شبكته تخرج برزق من السمك أذهله من العجب ، وأرقصه من الفرح ... وكان على بعد منا جماعة من الصيادين يحاولون عبثا أن يخرجوا من البحر سمكة ...

فقلت لصاحبى الموزع مشيراً إليهم :

ـ وهؤلا ؟ ...

فنظر إلى ناحيتهم وقال متبرما :

ـ هؤلاء بعيدون عنى ... إنى كما قلت لك رجل متعب ... وما من شيء يضطرنى إلى أن أقصد كل واحد منهم لأعطيه رسالة ... لقد أعطيت رسائلهم إلى هذا الصياد القريب ...

ـ أو تفعل هكذا برسائل الناس دائماً؟..

ـ طبعاً... وهل أنا من الجنون بحيث أوجع مفاصلى وأقطع أنفاسى جرياً وراء كل حى من عباد الله ؟!... إنى أعطى من صادفنى رسائل من لا يصادفنى ... وأنا مستريح فى أمان الله!...

* * *

ومرت بقربه عندئذ عجوز حيزبون ، كريهة الصوت ، سيئة الخلق ، تخرج من ثوبها ورقة « يا نصيب » وتنادى بائع صحف لتكشف عن رقمها في الجريدة ، وهي تأمره وتنهاه بلهجة دونها السباب وقاحة ... وخلفها غيد كالغزلان فى أثواب « البلاج » يركضن على الرمال ... ويلوحن بأذرعهن الفضية ، ويحملن فى أيديهن البضة أوراقا من هذا اليانصيب يردن كذلك الكشف عنها ... فاقتربت العجوز من الموزع العجيب ؛ فأخرج من محفظته ألف رسالة دسها في جيبها ... فما كادت تكشف عن ورقتها حتى وجدت رقمها هو الرابح للجائزة الكبرى البالغة من الجنيهات ألوفاً ... فصاحت بصوتها القبيح صياح لظفر والفرح والانتصار ! ...

هنا طار صوابى وصحت فيه :

ــ اتق الله يا شيخ ! ... وكن صاحب نظر ، إن لم تكن صاحب عدل ... هذه الشمطاء الشوهاء التى يكره أن يضحك لها قبر ، تقبل عليها أنت وتمنحها هـذه النعمـة ... وعلـى خطوات منها هؤلاء المليحات ينضح منهن الصبا ... فرحات بالحياة ، والحياة بهن فرحة ... لا تبصرهن عينك ولا يضحك

لهن وجهك ...

فدفعنى عنه بيده وقال :

ـــ اسكت ... من فضلك اسكت ... لو كان علىّ أن أميز بين الربيع والخريف ، والقبيح والمليح، وأن أفرز الذى يستحق ممن لا يستحق ، لما كنت أنهى شغلا فى يومى ! ...

ـــ أليس لكل إنسان عندك رسالة بنصيبه المماثل لنصيب أخيه ؟ ...

فصرخ فى وجهى :

قلت لكم لا أستطيع أن أفعل المستحيل ! ... ارحمونى ! ... أما من أحد يرحمنى أو يعذرنى فى الأرض أو فى السماء ! ... إنهم فى السماء يقولون لى : « جلبت علينا بإهمالك سخط الناس » ! ... وأنتم فى الأرض تصيحون بى : « هذا أخذ وذلك لم يأخذ » ! ... وأنا وحدى المظلوم ... بصرى كل ، وعقلى اختل من إرهاقى بالعمل أجيالا بعد أجيال ... احمدوا ربكم أيها الناس ... إن عينى تبصر أشباحكم ، وإنى أنثر عليكم كل ما فى محفظتى يوما بعد يوم ... ذلك أقصى قدرتى ! ... من دنا منى أو دنوت منه

أخرجت له وأعطيته ما لمس أصابعي ... ما وقع فى قبضتى ... مالتقطته من المحفظة أو ما عرفته ... وفقاً للمصادفات وتبعاً للظروف..أما أن أوزع بالعدل والقسطاس على كل إنسان نصيبه المماثل لنصيب أخيه ؛ فهذا عمل يحتاج إلى جرى لا تحتمله ساقاى ، وجهد تعجز عنه قواى ... اتهمونى بالكسل ما شئتم ... أو بالظلم ، أو بالإهمال ... فلن أصنع أبداً غير ما ترون ... ومن له شكوى فليعلنها ما شاء ، فان عدد الشكاوى التى تقدم كل يوم فى حقى تبلغ عدد هذا الرمل أيضاً :

* * *

وانصرف عنى وعن الشاطئ ذلك « الموزع العجيب » وتركنى سابحاً فى أفكارى ، غارقا فى تأملاتى ... إلى أن نبهتنى صيحات الفرح من الصياد المحظوظ ، وضحكات الغبطة من الرابحة العجوز ... فنهضت أركض خلفه كالمجنون :

— أيها الموزع ! ... انتظر ... نسيت أن أطلب إليك ... أعطنى رسائلك ... اغرف لى من محفظتك ! ...

* * *

لكنه كان قد اختفى ... وقعدت أنا على الشاطئ يائساً لا أجد

غير رماله تغرف منها قبضتى ، وغير بنانى أعضه ندما وأقول :

ــ لعنة الله على ! ... كان « الحظ » ها هنا إلى جانبى بمحفظته المملوءة ؛ يعطى منها بغير حساب ! ... ولكنها الفلسفة ... قاتلها الله ... شغلتنى عن مصلحتى ... وشغلته عن إعطائى ... فضاع الوقت معه فى الكلام ... و لم أظفر من لقائه بغير كلام ! ... ولو لم يمتد فكرى إليه لامتدت يده إلى ، ولكنت اليوم روتشيلد ، ورو كفلر ، وقارون ! ...

أنا الموت ! ..

في سيدى بشر صخرة يحيط بها زبد البحر وحبب الموج كما تحيط قلادة اللؤلؤ بعنق جنية سمراء ... فوق قمة تلك الصخرة جلس شاب في يده كتاب ، لا يطالعه ... ولكنه يطالع الأفق اللانهائى تارة ، وتارة أعماق الماء ... ما من شك فى أنه يصغى إلى همسات تناجيه وتناديه ... أهى خارجة من بين أسطر كتابه.. أم آتية من الشفق البعيد ، أم صاعدة من الغور السحيق ؟ ... إنه يسمعها من هنا ومن هناك ... إن لغتها مفهومة له ... وإن مراميها معلومة لديه ... وجاءت اللحظة الحاسمة : فنهض قائماً كأن شيئاً يجذبه ، وألقى بنفسه فى الماء ...

لم يمض قليل حتى شعر السابحون ورواد « البلاج » أن فى البحر غريقاً ... هاج الشاطئ بمن عليه وماج ... وعلا الصياح وارتفع الضجيج ، وبادرت قوارب الإنقاذ ... وهرع المجازفون من حذاق السباحة ... وبدا للناس أن تلك التدابير

على غير جدوى ، فهم يرون على البعد ذلك الجسد التعس ينتفض ويتخبط في لحظاته الأخيرة ، ولم تعد تظهر منه إلا الأذرع المضطربة مع الأمواج ... ولن يصل المنقذون إلا وقد صار فى القاع ... وجعل الناس يتتبعون مصير ذلك المجهول بقلوب واجفة ... وكثر البكاء عليه من كل رقيقة أو متظاهرة بالرقة ... وتمتمت الأفواه بالترحم عليه ... وقد أيقن الجميع بهلاكه ، ولم يبق عند أحد شك فى تلفه ...

ولكن صيحة فرح لم تلبث أن دوت فى ذلك الجو العابس ... فالتفت الناس ... فإذا فتاة فى « مايوه » تركب قاربا صغيراً من المطاط زاهى اللون قد ظهرت من خلف الصخرة تحمل أمامها فوق مطيتها جسم ذلك الشاب : كأنها تحمل مقطف مشترياتها من السوق ، وهى تهلل مرحة فى قلب البحر : « هو ... هو ... هالو ... هالو ... ! »

فأدرك الناس أن ذلك الجسم المحمول بين يديها لم يزل ينبض بالحياة ...

وهتفت الجماهير على الشاطئ للفتاة ، واتجهت إليها جماعة السباحين والمنقذين ، يأخذون منها الغريق ... ويسلمونه لرجال الإسعاف ، ومشت الفتاة مختالة بين الحشد

المحيط بها ، المتسائل عن حقيقة الحادث ... وهى تجيب قائلة : إنها شاهدت كل شيء ... من البداية حتى النهاية ؛ فقد كانت تجدف فوق قاربها المطاط قرب الصخرة ، وأبصرت الشاب وهو يهب مستوياً على قدميه فوق القمة ، ويطرح من يده الكتاب ثم يلقى بنفسه فى الماء ؛ فأسرعت إليه مجدفة بكل قوتها حتى بلغته وقد كادت تطويه الأمواج ، فقبضت على ذراعه وجذبته إلى مطيتها الخشبية وهو خائر القوى فاقد الوعى ...

ــ إنه حادث انتحار إذن ؟! .. لماذا أراد أن ينتحر ؟! ...

هذا هو السؤال الذى حار على كل الشفاه ! ...

قد يكشف التحقيق عن السر ، فالانتحار من الحوادث الجنائية التى يجب أن تتولى فيها التحقيق النيابة العمومية ...

ولم تكن حالة المصاب الصحية على شيء من الخطر ... فلم يكد يسعف بالعلاج حتى أفاق ... وعاد بعد قليل إلى حياته الطبيعية ، ومثل بين يدى وكيل النائب العام ، وكان فى قاعة التحقيق تلك الفتاة شاهدة الإثبات تدلى بأقوالها ، فلما فرغت ... التفت المحقق إلى الشاب قائلا :

ــ ما هو الباعث لك على الانتحار ؟ ...

فلم يجب الشاب ، ولكنه التفت إلى الفتاة يتأملها من رأسها إلى كعب حذائها ... لا تأمل المعجب بحسنها ؛ بل ...

وكتم فى صدره نفخة غيظ ثم قال :

ــ وما هو حق الآنسة فى منعى من الانتحار ؟! ...

فتردد النائب قليلا ، ثم أراد الكلام ... ولكن الآنسة انطلقت تجيب :

ــ لو رأيت منديلى يسقط منى فى الطريق أفلا تنحنى وتتناوله وترده إلىّ ؟ ... إذا كان هذا من حقك ، أفلا يحق لى وقد رأيت حياتك تسقط منك فى البحر أن أنحنى وأتناولها وأردها إليك ؟! .

فقال الشاب بقوة :

ــ لا يا سيدتى ! . موضوعنا عكس ذلك بالضبط ... إن منديلك لم يسقط منك فى الطريق ... بل أنت بيدك وإرادتك أسقطته عن عمد ... فلو رآك أحد وأنت تلقين به فى الطريق أو فى البحر ، ثم تطفل وتدخل ليرده إليك ؛ فهل تعتبرين هذا من حقه ؟ ...

فقالت الفتاة متحدية :

ــ ولكن المنديل ...

وهنا تململ وكيل النيابة فصاح :

ـــ دعونا من مسألة المناديل هذه ... هذا كلام لا يدون فى محاضرنا ... نحن أمام جناية شروع فى انتحار ... ولقد وجهت إليك أيها الشاب سؤالا صريحاً ... ما السبب الذى دفعك إلى ذلك ؟ ... والمطلوب الإجابة عن هذا السؤال بدقة مع عدم الخروج عن الموضوع ... تفضل ! ...

فقال الشاب :

ـــ اكتبوا ذلك السبب التقليدى الذى نطالعه كثيراً فى الصحف : « لضيق ذات اليد » ...

فقال النائب :

ـــ أو نسيت أنك قررت فى المحضر عند سؤالك عن صنعتك أنك من ذوى الأملاك ، وأنك تعيش من ريع عقارات ورثتها عن أبويك ؟!...

ـــ إذن قولوا: إن السبب هو البله أو الخبل أو الضعف العقلى ! ...

ـــ أغاب عنك أنك قررت فى المحضر أنك حائز على ما جستير فى الفلسفة من الجامعة ؟! ... الفلسفة من الجامعة ؟! ...

ـــ قل لى يا حضرة النائب : ماشأنكم إذا كنت أريد أن أحيا أو أريد أن أموت ؟ ...

ــ عجباً ! ... ألا تعرف أن الانتحار جريمة ؟ ...

ــ أعرف أن الانتحار هو رغبة في الانتقال من دار إلى دار ... ألا تقرأ في أعمدة الوفيات بالصحف كل يوم : انتقل فلان من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل المصيِّف إلى الإسكندرية من القاهرة ... اعتبروني إذن من المصيفين ... زهدت في مصايف الدنيا كلها ... فخطر لي أن أنتقل من هذا العالم إلى عالم آخر ...

ــ هكذا بدون جواز سفر ... أو بدون تذكرة ... أو بدون ترخيص ؟ ...

ــ حتى في هذا أيضاً لا بد من هذه الإجراءات ؟ ...

ــ طبعاً ... وهل تظن الأمر فوضى حتى تنتقل من عالم إلى عالم من تلقاء نفسك خفية على هذا النحو ؟ ...إن كل مسافر خفية يعتبر مخالفاً حتى المسافر إلى العالم الآخر ! ...

ــ إذن اعتبروني مخالفاً ؛ لأني سافرت بدون ترخيص أو بدون أمر ... ولكن لا حق لك في أن تسألني عن سبب السفر ! . فليكن لتغيير الجو ، أو للتهرب من الدائنين ، أو لملاقاة عزيز ، أو للتخلص من ثقيل ...

ــ اسمح لي بأن أذكرك بأن سبب السفر يطلب دائماً في

أحوال الانتقال النهائى والإقامة الدائمة بين بلد وبلد ... فمن باب أولى إذا كان الانتقال والإقامة بين دنيا ودنيا ...

— أف ! ... يا لفضول الناس ، ويا للحرية المفقودة على هذه الأرض ! ...

وأطرق الشاب قليلا ... وجعل رأسه بين كفيه ... وانتظر وكيل النيابة لحظة ؛ رأفة به وإشفاقاً من الإثقال عليه ... إلى أن اعتدل الفتى والتفت إلى المحقق بعينين تقولان : أَمُصِرٌّ أنت ؟ ...

فقال النائب :

— نعم ... لا بد من الإجابة عن سؤالنا ...

فقال الشاب وهو يتهيأ للقيام :

— اكتب إذن أن السبب هو مرض نفسى ... وهذا كل ما عندى ...

ولم ير المحقق بداً من الاكتفاء بهذا الجواب وتمم إجراءاته ... وختم محضره ... وأذن للشاب والحاضرين فى الانصراف ... لم يكد الفتى يخرج إلى الطريق حتى كانت الفتاة فى أثره تقول :

— أرجو أن يكون سخطك علىَّ قد زال ...

فالتفت إليها على الفور قائلا :

— لن يزول ما دمت على قيد الحياة ...

ــ إلى هذا الحد ترانى قد أسأت إليك ؟ ...

ــ لولا تدخلك الطائش لكنت الآن فى عالم أرقى ! ...

ــ تدخلى الطائش !؟ ...

ــ وداعاً يا سيدتى ... وداعاً ! ...

وتركها وقفز من فوق الإفريز ليجتاز الشارع مسرعاً ... وإذا سيارة نقل ضخمة قد داهمته وكادت عجلاتها تسحقه ... لولا جذبة من يد الفتاة جرته إلى الخلف أعادته سالماً إلى الإفريز حيث كان ... فرماها بنظرة نارية فهمت معناها ... وقالت بصوت يقطر حيرة وأسفاً :

ــ لا تؤاخذنى ... هذا غصب عنى ...

فهز رأسه غيظاً وقال كالمخاطب لنفسه :

ــ لا فائدة ... ما دمت أنت موجودة فلن أرى الموت بعينى ! ...

فقالت شبه معتذرة :

ــ وكيف كان ينبغى أن أتصرف !؟ ...

فانفجر حانقاً ثائراً ...

ــ كفى ... كفى ... مصيبة نزلت على رأسى وانتهى الأمر ! ... من أين طلعت لى أيتها المخلوقة ؟ ... تفسدين

تفكيرى وتدبيرى ، وتعبثين بخططى وتحولين بينى وبين مصيرى !؟ .. أخبرنى ... كيف أهرب منك ؟ ... قولى لى ... كيف أهرب منك كى ألاقى الموت ؟! ...

فلم تستطع الفتاة أن تكتم ما خامرها من ضحك ... غير أنها تماسكت وتصنعت الجد وقالت :

— مصيبة نزلت عليك !؟ ... ولماذا لا تعتبرنى ملاكك الحارس ؟ ...

— أنت ؟ ... لو كنت ملاكاً حارساً لا ستطعت على الأقل أن أغافلك وأصنع ما أشتهى ...

— ماذا تشتهى ؟ ... أن تموت ؟ ...

— نعم ...

فصوبت إليه نظرة فاحصة ، ثم قالت :

— ما كنت أعرف أن للموت هواة كهواة التنس ، والبنج بونج ، والتجديف ! ... يجب أن أعترف حقاً أنى أخطأت إذ منعتك من ممارسة هوايتك المفضلة ! ... ولكن الأمر بسيط ... فى الإمكان إصلاح الخطأ فى الحال ...

— كيف ؟ ...

— هأنتذا موجود ... والصخرة لم تزل قائمة ، والبحر لم

ينضب بعد ...

ــ ألقى نفسى فى البحر من جديد ؟ ...

ــ وسأجلس أنا على القمة أطالع كتابك ... وأشاهدك تهوى فى الماء ... فلا أرفع عينى عن الصفحة حتى أتمها على مهل ، وبعد ذلك ألتفت إليك وأترحم عليك ... مبسوط ؟ ... هيا بنا ! ...

ــ نعم ... هيا بنا ...

قالها بصوت فيه القوة والعزم والتحدى ... ومضى قاصداً « سيدى بشر » والفتاة إلى جانبه فى مثل عزمه وتحمسه ، وفطن إليها فجأة ، فاستدار قائلا :

ــ أنا ذاهب إلى الموت ... وأنت ... ما شأنك ؟ ...

ــ أسلمك إليه بيدى كما أنقذتك منه ! ...

ــ هلمى بنا ...

وبلغا « بلاج » سيدى بشر ... وأبصرا الصخرة ...

فقالت الفتاة :

ــ عندى اقتراح ... دعك من حكاية الصخرة ، وليلبس كل منا « المايوه » ونسبح فوق « البلسوار » وبعد ذلك ...

ــ ولكنى لا أعرف العوم ...

ــ وما الضرر ما دمت تريد الغرق ؟! ...

ـــ صدقت ... وبعد ذلك ماذا ؟ ...

ـــ بعد ذلك تتزحلق وأنت من فوق « البلسوار » وتسقط بين الأمواج فى المكان الذى يروق لك ... إنها موتة « سبور » طريفه ! ... ما رأيك فيها ؟ ...

فهرش رأسه قليلا وتفكر لحظة ثم قال :

ـــ لا يا سيدتى ... لا تمتهنى جلال الموت ... أنا الشاب الجاد طول عمرى ، أختتم حياتى بموت « سبور » بدل أن أختمها بموت وقور ؟! ... يا للنساء ! ... لا يضعن إصبعهن فى شىء حتى ينقلب لعباً وعبثاً ولهواً ... اذهبى عنى أيتها المرأة ! ...

ـــ لا تغضب ! ... هلم إلى الصخرة ...

* * *

لم تمض برهة حتى كان الفتى والفتاة فوق قمة تلك الصخرة المعروفة فى « سيدى بشر » ... كأنهما عاشقان هربا بحبهما من ضجيج المجتمع وصخب الأرض ... وهل يستطيع الناظر إليهما عن بعد أن يتوسم فى أمرهما غير ذلك ، مهما أوتى من فراسة ؟ ... منذا يشاهد هذين المنفردين الجميلين وهما يتطلعان إلى البحر بنظرات حالمة ويخطر فى باله تلك الصلة العجيبة التى تربط أحدهما با لآخر ... أو يمر بخلده تلك الفكرة المروعة التى

تجول برأس كل منهما الساعة ؟! ...

وطال صمت قطعته الفتاة بقولها :

ـــ من واجبى أن أنصحك أن تتروى ...

ـــ لا حاجة بى إلى نصائحك ...

ـــ أنت حر ...

ـــ هس ! ... دعينى أسمع تلك الهمسات التى تناجينى وتنادينى ، إنها آتية من الشفق البعيد ... بل هى صاعدة من الغور السحيق ..ألا تسمعينها ؟ ...

فسددتْ إليه نظرة أرادت أن تنفذ بها إلى أعماق نفسه ، وقالت :

ـــ همسات تناجيك وتناديك ؟ ... اسمع ... أنا لست وكيل نيابة أمامه محضر ، وأنت شخص على أبواب الوفاة ، ولن أحول بينك وبين الموت كما اتفقنا .. فهل تسمح وتفضى إلى بسر انتحارك ؟ ... ثق أنى سأحتفظ به لنفسى ... ولن أبوح به لأحد .. قل ... ما سبب الانتحار ؟ ...

فلم يجبها و لم يلتفت إليها ... وظل يحملق فى ماء البحر .. ولبثت هى تنتظر أن تنفرج شفتاه عن كلام ... فلما أعياها سكوته طفقت تقول :

ـــ السبب ظاهر ... طبعاً من أجل امرأة ! ...

فاتجه إليها بوجهه ورمقها بنظرة سخرية ، ثم عاد إلى ما كان فيه من تأمل الماء دون أن ينبس بحرف ... فأردفت تقول بإصرار :

ـــ لا بد أن يكون هذا هو السبب ... من أجل امرأة فى حياتك ... أو لعدم وجود امرأة ! ...

فاستدار يقول لها بهدوء :

ـــ لماذا تجعلين للمرأة هذه الأهمية فى الكون ؟! ...

ـــ إذن ما السر ؟ ...

ـــ يهمك أن تعرفى ؟ ...

ـــ جداً ...

ـــ اعرفى إذن أنه لا يوجد سر ... كل ما فى الأمر أنى أريد الخروج من الحياة ... أريد أن أخرج منها بكل بساطة ... ماذا فى ذلك ؟ ...

ـــ إنك لم تدخل الحياة بإرادتك حتى تخرج منها بإرادتك ...

ـــ كدت أخرج منها بإرادتى ، لولا فضولك وانحشارك فيما لا يعنيك ...

ـــ الحق معك ... هذا درس ينفعنى فى المستقبل ... وإن كنا أحياناً لا نقوى على منع أنفسنا من تنبيه الغافل ... هذه الحياة التى

تمقتها ... انظر إليها ... أليست جميلة ! ... أنت لا ترى فى الأفق والبحر غير أذرع للفناء تدعوك وتناديك ... ولكن الناس من حولك يرون بهجة فى كل شيء ... انظر إلى الأطفال والنساء والشيوخ والرجال ... فى الماء وعلى الرمال ... كلهم مرحون ضاحكون ... لكأنهم يصغون إلى همسات أغنيات تتصاعد من كل شيء لتناديهم وتدعوهم إلى البقاء ...

فتململ الشاب ونفخ نافد الصبر ضيق الصدر ، وقال :

ــ الحياة قبيحة فى نظرى ... أشريكتى أنت فى حدقة عينى وشبكة بصرى ؟! ... رواية فى السينما لم تعجبنى ، وأردت الخروج ... هل لمتفرج فى القاعة أن يمسك بيدى ويجلسنى على الرغم منى يقول : الرواية ممتعة ... امكث حتى النهاية !؟ ...

فقالت الفتاة بعنف :

ــ لا أحد يمسك بيدك ... تفضل ... مت ...

وابتعدت عنه وانتحت ناحية من الصخرة ، ولبث هو لحظة فى مكانه بلا حرك ... ثم تزحزح قليلا ، واقترب منها وقال :

ــ ومن يضمن لى لو ألقيت بنفسى أنك لا تنقذيننى ؟!

فنظرت إليه بعينين واسعتين :

ــ من يضمن لك ؟ ... هل يحتاج الأمر أيضاً إلى ضمانات

وتأمينات ؟ ... اسمح لى ... هذا كثير ... قلت لك اطمئن من جانبى ومت كما تشاء ... ولكن يظهر أن الشجاعة فارقتك ... وأنك تلجأ الآن إلى التعلل والتحجج و « التمحك » فصاح قائلا :

— أنا ؟! ... إنك لا تعرفيننى ... سترين ...

— لقد عرفتك ...

— كم الساعة عندك ؟ ... سأموت بعد ...

— وما لزوم الساعة ؟ ... قفزة وتصير فى الأعماق ! ...

— أنا حر فى اختيار الوقت ...

— أرجو أن تسرع من فضلك ، ولا تعطلنى أكثر من ذلك ... وأخرجت مرآتها الصغيرة ، وجعلت تسوى شعرها بتمهل وتأنق وعندية ، وتنظر إلى انعكاس صورته فى المرآة وهو واقف كالصنم ، لا يدرى ما يفعل ... ثم طفقت تدندن بأغنية معروفة ... فقال لها بنبرة حنق :

— تغنين ؟ ...

— أنا فى انتظارك ! ...

لفظتها بهدوء دون أن تلتفت إليه ... فتركها فى حركة عنيفة ويمم شطر البحر ، وصاح :

ـــ الوداع ! ... قبل أن ألفظ النفس الأخير ، أذكرك بتعهدك ... إياك أن تحاولى ...

فقاطعته قائلة بفتور :

ـــ اطمئن ! ...

فاتجه إلى البحز ومد يديه وصاح :

ـــ واحد ... اتنين ... تلا ...

ولم يتم ... فقد انطلقت من فم الفتاة ضحكة عالية ... فأرخى ذراعيه ، والتفت إليها ساخطاً ... فابتدرته قائلة ووجهها فى المرآة وإصبعها تمسح شفتيها :

ـــ سامحنى ... دهنت فمى بإصبع « الروج » أكثر من اللازم ... انظر ! ...

ـــ أهذا سلوك امرأة تشاهد رجلا يحتضر ؟! ...

ـــ أنا متأسفة ... لا تغضب ! ... سأتم زينتى فيما بعد ... هلم ... امض فيما أنت فيه ... أنا الآن تحت تصرفك ... تفضل ...

وأخفت مرآتها ، واعتدلت فى جلستها ... ولكنه أطرق إطراق اليائس ... لا من الحياة ؛ بل من الموت ... ثم جلس ووضع رأسه فى كفيه ، وبدا كأنه فريسة لتفكير ممض وحيرة

مضنية ... وأمسى منظره يستدر الإشفاق ويستثير الرثاء ... فدنت منه الفتاة قائلة برفق :

— لا تعذب نفسك ... حاول أن تعيد النظر فى الرواية : أعنى الحياة ، فقد ترى فيها ...

فلم يدعها تكمل عباراتها ... وانتفض قائلا :

— لا ... لن أرى فيها غير سخيف وقبيح ... أنت لا ترين ما أرى لأنك لا تفكرين برأسك ... وأغلب الناس مثلك ... أتدرين ما الحياة ... إنها مرآة ... لا كمرآتك تعكس لك وجهاً جميلا ... ولكنها مرآة من مرايا « اللونابارك » تعكس الحقيقة طويلة وقصيرة ، ومنتفخة ونحيلة ... لقد تأملت فوجدت أنه لا توجد فى الحياة حقيقة ثابتة ، فما نسميه الخير والجمال والعدالة والحرية ... إلخ ... ليست سوى أشياء لا تحتفظ بصفاتها طويلا دون أن تتحول إلى جواهر جديدة عكسية مناقضة ... فالحرية إذا امتدت فى المسافة والبعد صارت عبودية ... والعدالة تمتد إلى نهايتها فتصبح هى الظلم ... والجمال فى امتداده ينقلب إلى قبح ، والخير إلى شر ... حتى المواقع الجغرافية فى هذه الدنيا ليست ثابتة ... فإذا امتد الشرق إلى نهايته تحول فجأة إلى غرب ... وحسن القمر أو الكواكب الذى يتغنى به الشعراء ينقلب إلى هول

قبيح إذا تغيرت الأبعاد ... لا توجد فى الحياة حقائق ثابتة ... كل شىء أبعاد ومسافات ... أين الحقيقة فينا فى هذا « اللونابارك » ؟ . إن مرآته تعكس لنا صوراً تختلف فى الطول والقصر ، والبدانة والنحافة ، والحسن والقبح كلما غيرنا البعد والمسافة بيننا وبين المرآة ... وكانت الحقيقة خارج « اللونابارك » بعيدة عن تلك المرآة ! ... فهل أنا مخطئ إذا سعيت إلى الخروج لأبحث عن حقيقة وجودى ؟! ... ما قولك الآن ... أما زلت مصرة على مخالفتى فى الرأى ؟ ...

فسكتت الفتاة لحظة ... ونظرت إليه تتأمله ملياً ثم قالت :

ـــ هل تشكو من إمساك مزمن ؟ ...

ـــ نعم ... كيف عرفت ذلك ؟ ...

قالها سريعاً ، ولكنه لم يلبث أن فطن للمفارقة ... فتجهم وهم بعتابها وانتهارها ، فليس هذا هو التعليق اللائق بتفكيره العميق ... ولكنها أسرعت تقول بلطف :

ـــ أتدرى لماذا تفكر في الانتحار ! ... هذا طبيعى ... أنت تصعد فى القمم ... ألا تلاحظ أن أولئك الذين يصعدون الهرم الأكبر ، يشعرون بدوار ، ويحسون كأن الأرض تجذبهم وتناديهم ؟ ... ولولا أيد تسندهم لسقطوا ... أو ألقوا بأنفسهم

وهم لا يشعرون ... ولكن من المستحيل على من يمشي فوق الأرض أن يشعر بدوار المرتفعات الذى يغرى بالوقوع ! ... عندى لك علاج لدوار المرتفعات ... أتدرى ما هو ؟ ... أن تتعاطى بعض التفاهات ! ...

فلم يكد الشاب يسمع منها ذلك حتى ثار :

— التفاهات ؟ ... أنا الذى اعتدت التفكير والتأمل طول العمر ؟! ...

فقالت هادئة :

— لماذا تجعل للتفكير هذه الأهمية فى الكون ؟! ...

— ماذا تقولين ؟ ...

— اسمع ! ... اذهب وازدرد « كوزين » ذره مشوية على « الكورنيش » واملأ أمعاءك بنصف أقة خيار أخضر بقشره ...

— يا حفيظ ! ...

— وتزوج امرأة وتناكفها وتناكفك ... وتملأ جزءا من حياتك بالسخف والقرف والخلف ...

— أتزوج ؟! ...

— وإذا طلبت منى هذه التضحية لعلاجك .. فإنى أقدم نفسى كأنها دواء من « الأجزاخانة » فى زجاجة عليها ورقة ...

ـــ حمراء ! ...

ونهض من فوره مستوياً على قدميه ... ولم تشعر الفتاة إلا والشاب فى البحر يتخبط بين الأمواج ، وقد ألقى بنفسه بلا تردد قبل أن تفطن إليه ... فارتبكت هى لحظة لا تدرى ماذا تصنع ... إلى أن دفعتها غريزتها عن غير وعى ... فألقت بنفسها خلفه فى الماء وانتشلته وجذبته إلى الصخرة ... وأسعفته ... فثاب إلى رشده وفتح عينيه ووجد نفسه بين ذراعيها ... فقال مرتاعاً :

ـــ أنت ؟ ...

فقالت باسمة :

ـــ ألا تريد أحضان الموت ؟ ...

ـــ نعم ...

ـــ أنا الموت !..

وكانت الدنيا ! ..

لماذا تمرد إبليس ؟ ... قصة ذلك معروفة ، جاءت بها الكتب السماوية ولا سبيل إلى الشك فيما روت ... ولكن خيال الروائي يجنح أحياناً إلى اختلاق صور أخرى للحادث الواحد ، ولا بأس من عرض إحدى هذه الصور على سبيل التفكه ... لا الاعتقاد ...

جاء في تاريخ أبي الفدا أن إبليس قبل أن يرتكب المعصية ويناهض ربه ، كان اسمه « عزازيل » ... وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة ... وكان رئيس ملائكة السماء ، وكان خازنا على الجنان ... وكان له سلطان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً ، وأن الله لما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على الملائكة ، فوقع في صدره : « إنما أعطاني الله هذه المزية لي على الملائكة » ...

وتبدأ قصتنا هذه المخترعة وبعد أن تم خلق آدم ، خلقه الله

بيده ... إذ لبث جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها يصنع منه آدم ... فلما مد جبريل يده إلى الأرض فزعت وقالت : أعوذ بالله منك أن تنقص منى ، فرجع الملاك ولم يأخذ ... فبعث الله ميكائيل فكان حظه مثل حظ جبريل ... فبعث الله فى آخر الأمر ملك الموت ... فما كادت الأرض تقول له : أعوذ بالله منك أن تأخذ منى ... حتى قال لها : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربى ... ومد يده وقبض من وجه الأرض قبضة ... ولم يأخذ من مكان واحد ، بل أخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء ... ولذلك خرج بنو آدم مختلفين فى اللون ... وخلق الله من هذا الطين جسد آدم ، فلما مرت به الملائكة فزعوا منه ... حتى إبليس ... كان يمر به فيضربه فيصوت الجسد الأجوف كما يصوت الفخار ، وتسمع له صلصلة ... ثم نفخ الله فيه بعد ذلك من روحه ... فلما دخلت الروح فى رأسه عطس ... ولما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ... فلما دخلت الروح فى جوفة اشتهى الطعام.وأتم الله خلق آدم ... فجاء خير ما خلق وأعجب ما أبدع ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لهذه الآية الرائعة ، فسجدوا كلهم إلا إبليس ... نظر إلى تلك المعجزة ملياً ، ثم لوى عنقه وهز كتفيه ، ومضى فى الجنة يسير مستخفاً

بما رأى ، مستكبراً أن يقع ساجداً لمخلوق من طين ، وقابلته الحية الذكية وقد علمت بالخبر ، فاستوقفته صائحة :

— يا عزازيل ! ... مالك ؟ ... لماذا لم تفعل كما فعل الآخرون ؟ ...

— أنا أسجد لهذا الشيء ؟! ...

— لا تدع الحسد يأكل قلبك ...اعترف أنه عمل عظيم ...

— ماذا فيه من عظم ؟ ... أهو ذلك الطين الذى خلق منه ؟ ...

— ذلك الطين أفضل على كل حال من النار التى خلقت منها ...

— ماذا تقولين أيتها الحية الخبيثة ؟ ...

— إن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ...

— أولا تعلمين ماذا فى النار ؟ ...

— ماذا فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق ؟ ...

— ما أنتِ إلا النفاق صور وكور ! ... أَلِأن الله هو الذى خلقه ؟ ...

خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء ... وهذا شرف ما بعده شرف ...

ـــ علمه أسماء كل شيء ؟ ...

ـــ نعم ... لأنه أعطاه العقل الذى به يعلم ويفهم ، وأعطاه النفس التى بها يعى ويدرك ، وأعطاه القلب الذى به يشعر ويحب ... إنه ليس على غرار الملائكة ، مخلوقاً يفنى فى العرش كل الفناء ... إنه متصل منفصل ... إنه مندمج مستقل ... إنه قدير على أن يفكر بنفسه ، وأن يعيش حياته ... وأن يقرر فى بعض الأحيان مصيره ؛ كأنه مصغر إله ... أو صورة صغيرة لإله ...

ـــ لقد نفخ فيه من روحه ! ...

ـــ أرأيت ! ... هو ذاك يا عزازيل ... آن الأوان أن تفهم ذلك ...

ـــ آن الأوان أن أفهم أن فى إمكانى أنا أيضاً أن أصنع شيئاً أنفخ فيه من روحى ! ...

قالها كالمخاطب لنفسه ، ومضى سريعاً حتى لا يطرق سمعه صوت ضحكات الحية الساخرة ...

انطلق إبليس فى كل مكان يبحث عن الطين حتى وجده ، فتناوله فرحاً ، وجعل يسوى منه مخلوقاً على مثال آدم ، وتمت الصورة ، وانتظر أن تنبض أو تنهض ؛ فلم يجد إلا جماداً لا حراك

به ... فترك ما صنع وانطلق يائساً ساخطاً ، يحمل المرارة والخيبة ويريد أن يكتم ما وقع ... ولكن الحية الذكية علمت بالأمر فبادرته قائلة :

ــ فهمت الآن أن الخلق ليس هيناً !؟ ...

ــ اخرسى ! ...

ــ آدم ليس هو الطين ... بل « االحياة » التى أودعت الطين ... ذلك هو « روح الله » ... هذا هو سره الذى لم يكشفه أحد ، حتى ولا أنت الذى زعمت أنك استرقت واجتهدت واطلعت على أكثر علمه ...

ــ سر الحياة ! ...

ــ نعم .. الذى يودعه الطين أو التراب أوالنار أو الماء ، أو أى عنصر من العناصر ... ذلك هو السر الأعظم ! ...

ــ كيف الحصول عليه ؟ ...

ــ هذا مالا سبيل إليه ... تلك صفة الله التى لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها ... إنها روحه التى لا تعطى ولا تفقد ولا تسلب ... وهو وحده الذى يستطيع أن ينفخ منها بإرادته فى الكائنات ...

ــ لا بُدَّ لِي مع ذلك أن أخلق شيئاً ...

ـ شيئاً حياً ؟ ...

ـ نعم ...

ـ لن تستطيع أن تخلق شيئاً حياً من مادة ميتة ...

ـ اخرسى أيتها الثرثارة ! ...

وتركها وانصرف مطرقاً مفكراً ... ومشى فى الجنة على غيري هدى ... وإذا المصادفة تقوده إلى شجرة وارفة الظلال دانية القطوف ... وإذا هو يبصر تحتها آدم راقدا غارقاً فى نعاسه .. فوقف على رأسه يتأمله ... وخطرت له فكرة أنعشته بالأمل .. حقاً إنه لن يستطيع أن يصنع مخلوقاً حياً من مادة ميتة كالطين ... ولكنه قد يستطيع أن يخلق كائناً حياً من شيء حى ... فلو استطاع أن ياخذ من جسم آدم الحى قطعة ؛ لكان فى الإمكان أن يصنع الباقى ... ولكن ماذا يأخذ ؟ .. الأنف ؟ ... هذا عضو ظاهر ، وإذا استيقظ آدم بغير أنفه ، فلن يكون هو الأضحوكة ... بل الأضحوكة إبليس الذى سيضبط متلبساً بالسرقة ، وسوف تكون قهقهة الحية عندئذ عالية صاخبة ...

كلا ... فليبحث عن عضو غير الأنف ... ماذا ؟ ... القدم ؟ ... وبمادا يمشى آدم ؟ ... اليد ؟ ... وبماذا

يأكل ؟ ... اللسان ؟ ... وبماذا ينطق ؟ ... كلا ... يجب أن يكون العضو المسروق غير ظاهر وغير نافع ... وتحسس إبليس برفق جسد آدم ، فوجد الأضلاع ... إنها ليست ظاهرة ، وهى كثيرة لا تظهر فيها السرقة إذا استلب أحدها ... فليأخذ هذا الأقصر الأيسر من بين أضلاعة ؛ ففيه تتوافر كل الشروط ... فهو مستتر منزو لا فائدة فيه ، ولن يشعر بفقده ، حتى ولا آدم نفسه ...

واستل إبليس الضلع الحى بخفة ومهارة ، وسواه على صورة آدم ، ولكنه تصرف قليلا ، ووضع شيئاً منه ... وانتصب ذلك المخلوق الجديد يتمطى ... وعندئذ ارتفع صوت من بين الأشجار يقول :

ــ مرحى ... مرحى ! ...

فالتفت إبليس ، فإذا هى الحية واقفه على رأسه ، مطلعة على فعله ، فبادرها بلهجة الظافر :

ــ ما رأيك الآن ؟ ...

فقالت فى ابتسامة خبث ، وهى تنظر إلى المخلوق الجديد :

ــ بديعة حواء ! ...

فنظر إبليس إلى الحية مستفهماً مستغرباً

ـــ « حواء » ؟! ... لماذا تسمينها هكذا ؟ ...

فأجابت الحية بمكر ودهاء :

ـــ لأنها صنعت من شيء حيّ ! ...

ـــ أبصرت إذن كل ما حدث ؟ ...

ـــ وسأكتم سِرك ... لا تخش شيئاً ...

ـــ أسائل نفسى دائماً : لماذا لا تكون أصدقاء ؟ ... إنى أحمل لك أيتها الحية كل تقدير ، وأحمل لذكائك كل إعجـاب ... أتريدين أن أخصك بسر آخر ؟ ... لقد كنت أفكر فيك وأنا أصنع هذا المخلوق الذى سميته « حواء » ! ...

ـــ كما كنت تفكر فى نفسك ...

ـــ أحقاً ما تقولين ؟ ... أترين فى هذا المخلوق شيئاً منى ؟ ...

ـــ بلا شك ... انظر إلى حركاته ... وإلى رشاقته ... بل إلى بريق عينه ... إن فيه أثراً من الطين ، ولكن فيه أيضاً لفحة من النار ... انظر ... انظر ... فى حواء بعض ما فيك : الطيش والخفة والسرعة والإحراق ...

وعندئذ دوى فى أرجاء الجنة صوت ارتعدت له فرائص إبليس والحية ... فهربا مذعورين جزعين ... واستيقظ آدم من سباته ،

فألفى حواء بقربه ... فلم يفهم من أمرها شيئاً ... ولبث لحظة يتأملها دهشاً ... إلى أن أُلقى فى روعه علم خفى بما ينبغى أن يفعل ، فليسكن إلى حواء إذا شاء ... ولكن الحذر كل الحذر أن يقربها أو يلمس جسدها جسده ...

وعلم إبليس بالأمر ... فأقبل على الحية يسألها :

ـــ لماذا حرم على آدم لمس حواء ؟ ...

فأجابته على الفور :

ـــ أوَنسيت أن بها شيئاً من النار ؟ ...

ففكر إبليس قليلا ، ثم قال بارتياب :

ـــ لا أظن هذا كل شىء ... إنما المقصود فيمّا أرى هو أمر أخطر من هذا ... ترى ماذا يحدث لو امتزج هذان المخلوقان ؟ ...

ففكرت الحية لحظة ... ووقع بصرها مصادفة واتفاقاً على عش طائر فى أعلى الشجرة ، فصاحت :

ـــ يحدث لهما ما يحدث لهذا الطير ... يتناسلان ...

ـــ يتناسلان ؟ ...

ويخرج منهما مخلوق ثالث ...

فصاح إبليس :

ــ نعم ... هنا المسألة ... وهنا علة الخطر ... ولكن لماذا لا يراد خروج هذا المخلوق الثالث ؟ ...

ــ لأنه سيكون فيه شيء منك ... هذا مفهوم بالبداهة ... إن آدم ، ذلك العمل العظيم الذى يفخر به الخالق ... تلك الآية التى نفخ فيها من روحه ... يجب أن تبقى هكذا بمفردها صورة خالدة ناطقة بمقدرة المبدع الأعظم وكماله الأبدى ، الذى لا يشوبه نقص ، ولكن جئت يا صديقى إبليس تفسد هذه الروعة ... وتريد أن تستخرج من هذه الصورة المفردة نسخاً مشوهة ! ...

ــ هذا لم يخطر لى حتى الآن حقاً ! ... ولكنه لو حدث لكان بالنسبة إلّى عملا رائعاً ... وهل هناك حقاً أمهر من أن أملأ الدنيا نسخا من ذلك العمل العظيم الذى يفخر به الخالق ! ...

ــ لا تسترسل فى أحلامك وأوهامك ... هذا لن يحدث أبداً ...

ــ لماذا ؟ ...

ــ لأن لآدم ملكة عجيبة تسمى « العقل » دائمة التيقظ تمنعه من الزلل والوقوع فى المحظور ...

ــ العقل ؟! ... أوَ ما من سبيل أن يدهم النوم هذا العقل لحظة ؟! ...

— إذا نام ذلك العقل ، فقد تم لك ما أردت ...

— ساعدينى يا صديقتى الحية الذكية ! ...

— لماذا تريد أن تعرضنى لغضب خالقنا الأزلى ؟! ...

— إنه لن يغضب ... لماذا خلق لك الذكاء إذن ؟ ... لقد أعطاك الذكاء كى تستعمليه ... هلمى يا صديقتى ساعدينى ...

— قولك مقنع حقاً ... ليس أشق على النفس من أن نعطى شيئاً لا نستعمله ... أمعقول أن تكون لى هبة لا فائدة منها ؟! ...

— بل ليست تلك ولا ريب إرادة الخالق الذى أعطاك الذكاء يا صديقتى ، إنه أحكم من أن يعطى شيئاً لغير شىء ...

— صدقت ... اسمع إذن ... هنا شجرة فيها فاكهة إذا نضجت واختمر عصيرها أحدث عجباً ... فقد رأيت بعض الطير ينقرها فتحدث له أحوال غريبة ... ويقع فى نشوة تفقده اتزانه ...

— دلينى على هذه الشجرة ...

وعند ذاك دوى فى الجنة ذلك الصوت العظيم ، فهرب إبليس والحية مذعورين . ووقع آدم وحواء على وجهيهما ساجدين... ثم أُلقى فى روعهما ألاّ يقربا هذه الشجرة ... و لم يقنط إبليس ؛ فقد عاد بعد قليل إلى الحية يقول :

ـــ ما العمل ؟ ...

ـــ دعنـــى ... دعنـــى ... لـــن أشاركك بعـــد الآن فى مشروعاتك .

ـــ وماذا ستصنعين إذن ؟ ...

ـــ لا شيء ...

ـــ وهل يطيق ذهنك المتقد أن يخمد أو يكسل ؟ ...

ـــ إنى أخشى الخطيئة ...

ـــ الخطيئة لمثلى ومثلك ألا نطيع ملكاتنا ومواهبنا ...

ـــ لا تقنعنى بهذا الكلام البارع ...

ـــ أنت كائن حى ... أليس كذلك ؟ ... وأنا كائن حى ... هل نشك فى ذلك ؟ ... الحياة التى فينا هى وحدها التى تسيرنا كما تريد هى ، نحن لا نخضع إلا لطبيعة الحياة التى ركبت فينا... لم يوضع فى كياننا « عقـل » كما وضع فى آدم ... ذلك العقـل أو العقل والقيد أو الحبال التى تكبل حياته وتحد من نشاطه ، وتسيره طبقاً للأوامر والنواهى التى تصدر إليه من هنا ومـن هناك !... افعلى ما تمليه طبيعتك يا صديقتى ، فأنت حرة من كل عقل ...

ـــ مثلك ...

— مثلى ...

— لقد حلت معضلتك إذن ... إن فى حواء ولا ريب شيئاً منك ... لن نجد فيها إذن الكثير من ذلك العقل الذى نخشاه ...

— يا لذكائك النادر أيتها الحية العزيزة ! ... نعم ... نعم ... لاشك أن حواء فيها من روحى ... إنها ستخضع إذن للحياة والطبيعة والغريزة أكثر من خضوعها للعقل ... لقد انتهى الأمر إذن ... إنها ستفهمنى وستصغى إلىّ ... وستأكل من الفاكهة ...

— وفيها من قوة إقناعك ، وبراعة إغرائك ، فهى ستظفر بإقناع آدم وإغرائه أن يأكل كما أكلَتْ ... ويصنع كما تريد هى أن يصنع ...

فتهلل وجه إبليس فرحاً ، وصفق طرباً ، وجرى من فوره يبحث عن حواء ...

وتم بعد ذلك ما هو معلوم ... فقد ضعف آدم وأطاع حواء وأكل معها من الشجرة ، وانتشى من عصيرها وثمل ، وامتزج بحواء ، وطردا من الجنة إلى الأرض ... وأنبتها الجنين الأول ، وتكاثرت الذرية وتعددت « النسخ » وجاء قابيل فقتل هابيل ... وكانت الجريمة الأولى ... وعرف الشر على الأرض ...

واختلطت الصور الجيدة بالرديئة ؛ كما اختلطت الفضيلة بالرذيلة ... وامتزجت النسخ الأصيلة بالدخيلة ... ولم يعد فى الإمكان فرز وريث آدم من وريث حواء ... ولا الكمال من النقصان ... ولا النور من النار ... ولا لمعة الحق من خدعة الشيطان ... امتزجت فى الآدمى الواحد كل عناصر الخير والشر ، والحسن والقبح ، والحقارة والسمو ، والتفاهة والعظم ، والعدل والظلم ؛ والعقل والطيش ،والضعف والبطش ...

وكانت الدنيا ...

دولة العصافير ! ..

دولة عجيبة ... تبسط أجنحتها الصغيرة على الدنيا ... وتنشر أفرادها فى كل البقاع ، لا تخفى من أرض ، ولا تخلو منها سماء ... كلها فى عين الوقت إذا رأت عين الشمس زقزقت ، أو إذا خرج الصبح من جوف الليل خرجت هى من الأعشاش ... من هو المنادى الخفى الذى يوقظها جميعاً فى لحظة واحدة ! ... فتهب إلى العمل وهى تغنى ... فلا كسلان متخلف ... ولا متثائب مترف ...

قال عصفور صغير لأبيه ذات يوم :

ـــ ألسنا نحن يا أبت خير المخلوقات ؟ ...

فهز العصفور الكبير رأسه وقال :

ـــ هذا شرف لا ينبغى لنا أن ندعيه ، هنالك من يزعم لنفسه هذا الحق ...

ـــ من هو يا أبت ؟ ...

ـــ الإنسان ...

ـــ الإنسان ؟ ... ذلك الـــذى يـــرشق أعشاشنـــا بالحجارة ؟ ... أهو خير منا ؟ ... أهو أسعد منا ؟ ...

ـــ ربما كان خيراً منا ... ولكنه ليس أسعد منا ...

ـــ لماذا يا أبت ؟ ...

ـــ لأن فى جوفه شوكة تخزه دائماً وتعذبه ...

ـــ يا له من مسكين ! ... ومن الـذى وضع فيـه هــذه الشوكة ؟ ...

ـــ هو نفسه بيده ... هذه الشوكة نسمى الجشع ...

ـــ الجشع ؟ ... ما هو الجشع ؟ ...

ـــ هذا شىء لا تعرفه أنت أيها الصغير ... بل قد لا يعرفه أحد فى دولة العصافير ... ولكنـى أنـا عرفتـه لطـول ملاحظتـى للإنسان ، ولوقوعى فى قبضته أكثر من مرة ... إنه الشىء الذى يجعله لا يشبع ولا يطمئن ولا يرتاح ... نحن نعرف الشبع ... وهو لا يعرف إلا الجوع ... نحن نعمل لنرزق ، وهو يريد أن يرزق ولا يعمل ، نحن لا نعرف استغلال عصفور لعصفور ... فعصافير الأرض تخرج كلها للعيش فرحة مغـردة متواضعـة متآخية ، وهو لا يحلم إلا باستغلال أخيه الإنسان ليعمل بدلا منه منذ الصباح الباكر ، ويتمدد هو فى فراشه يتمطى ويتراخـى

ويتثاءب حتى الضحى ... فلا يرى الشمس الذهبية ، ولا الفجر الفضى ، ولا يستنشق الهواء الندى ... إنما شمسه ذهب مرصود فى المصارف ، وفجره فضة تزين أدوات حجرته وهواؤه طمع يملأ صدره ...

وسكت العصفور المجرب لحظة ، ونظر إلى ابنه الناشىءفوجده يصغى إلى هذا الكلام إصغاءه إلى أسطورة خيالية ... إنه يدرك ولا يصدق ، ويعى ولا يعتقد ... تلك أشياء لم يرها بعينه ، ولم يصادفها بعد فى حداثته الصغيرة... ولم يمارسها حتى الآن فى حياته القصيرة ...

ورأى أبوه منه ذلك فقال :

ـــ نعم ... لا بد أن تشاهد بعينيك ... إذا رأيت يا بنى إنسانا مقبلا فأخبرنى وأنا أريك منه ما يقنعك ...

ولم يمض قليل حتى أقبل رجل ، فما كاد العصفور الصغير يراه حتى صاح بأبيه ينبهه ... فقال الأب لابنه :

ـــ سأوقع نفسى فى يده ، وعليك يا بنى أن تراقب ما سيحدث ...

ـــ تقع فى يده يا أبى ؟ ... وإذا حدث لك ضرر ؟ ...

ـــ لا تخف ... إنى أعرف طبائع الإنسان ، وأعرف كيف

أسخر منه وأفلت من يده ...

وغادر العصفور المحنك صغيره ، وهبط من فوره حتى وقع على مقربة من الرجل ، فصاده الرجل فرحا ، وضم عليه أصابعه حرصاً منه على الغنيمة ... فقال له العصفور وهو فى قبضته :

ـــ ماذا تريد أن تصنع بى ؟ ...

فقال الرجل منهوماً :

ـــ أذبحك وآكلك ...

فقال العصفور الماكر :

ـــ إنى لا أشبعك من جوع ، ولكننى أستطيع أن أعطيك ما هو أنفع من أكلى ...

ـــ ماذا تعطينى ؟ ...

ـــ ثلاث حكم ، إذا تعلمتها نلت بها خيراً كثيراً ...

ـــ اذكرها لى ...

ـــ لى شروط : الحكمة الأولى أعلمك إياها وأنا فى يدك ، والحكمة الثانية أعلمك إياها إذا أطلقتنى ، والحكمة الثالثة أعلمك إياها إذا صرت على الشجرة ...

ـــ قبلت ... هات الأولى ...

ـــ لا تتحسر على ما فاتك ...

— والثانية ؟ ...

— أطلقنى أولا حسب الشرط ...

فأطلق الرجل من يده العصفور ، ووقف العصفور على ربوة بقربه وقال :

— الحكمة الثانية : لا تصدق ما لا يمكن أن يكون ...

ثم طار إلى الشجرة وهو يصيح :

— أيها الإنسان المغفل ... لو كنت ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا ...

فعض الرجل على شفتيه عضة أدمتهما ، وتحسر حسرة شديدة ، ونظر إلى العصفور وقد صار على الشجرة ، وتذكر شروطه ، فقال له بصوت ينزف منه العذاب والتلهف :

— هات الحكمة الثالثة ...

فقال العصفور باسماً ساخراً :

— أيها الإنسان الطماع ! ... لقد أعماك جشعك فنسيت الاثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ... ألم أقل لك لا تتحسر على ما فاتك ، ولا تصدق ما لا يمكن أن يكون ... إن لحمى وعظمى ودهنى وريشى لا يزن عشرين مثقالا ... فكيف تكون فى حوصلتى درتان وزن كل واحدة عشرون مثقالا ؟! ...

وكان منظر الرجل مضحكا ... لقد استطاع عصفور أن يلعب بإنسان ... والتفت الأب إلى ابنه العصفور الصغير قائلا :

ـــ والآن رأيت بعينيك ؟! ...

فقال الصغير وهو يراقب حركات الرجل ويلاحظ ما به :

ـــ نعم ... لست أدرى هل أضحك منه أو أبكى عليه ! ...

في سنة « مليون »

وضعت هذه القصة فى سنة مليون « ميلادية » ! ... فى ذلك العصر صارت الدنيا إلى وضع يتعذر على الخيال تصوره ... فلقد اختفت الحروب ، وانقرض المرض ، ومحى الموت ... نعم لقد تغلب العلم على الموت منذ مئات الآلاف من السنين ... لم يعد هناك قوم يموتون .. لم يعد هناك قوم يولدون أيضاً ... فالزواج للنسل انقرض كذلك منذ هذه الأحقاب ، فالعلم هو الذى يجهز بكتريا النسل الآدمى فى معامله ... ولقد ظل الأمر يجرى على هذا النهج ألوفاً من الأعوام ... إلى أن كف الناس عن الرغبة فى إنتاج بشر جديد فما من ضرورة تقضى بزيادة الناس ماداموا لا يموتون ... لقد أصبح البشر الموجودون شأنهم شأن عناصر الطبيعة الخالدة التى لا تتغير ، إنهم باقون دائماً كتلك الشمس الباقية وذلك القمر وذلك البحر وذلك الجبل ... لا شىء يخبو فيهم أو ينقص منهم ... فخلاياهم تتجدد وغددهم لا تعرف البلى ... كلمة الشيخوخة

لم يعد لها مدلول فى لغة ذلك العصر ... ولا كلمة الشباب ... كل ما يعرفه أهل ذلك الزمان هو أنهم « موجودون » وهل يستطيع البحر ... لو كانت له لغة ، أن يتحدث عن الصبا أو الهرم ؟! ...

في صيف ذلك العام ـــ المليون بعد الميلاد ـــ دخل عالم من علماء طبقات الأرض على عالم من علماء الكيمياء وقال له : يخيل إلىّ أنى سائر نحو اكتشاف خطير ، سوف يدهش الناس جميعاً ... لقد عثرت على عمق بعيد فى جوف الأرض على هذا الأثر ... انظر ... وأخرج بحرص وحذر من حقيبته الصغيرة جمجمة آدمية ! ... قدمها إلى صديقه الكيميائى ... فتناولها وفحصها قائلا :

ـــ ما هذا ؟ ... هيئة رأس يقرب من رؤوسنا ! ... لولا حجمه الصغير ... ولولا هذا الشىء ...

وأشار إلى الأسنان والفم ...

فقال العالم الچيولوچى مصادقاً :

ـــ نعم ... إن تاريخه يرجع إلى ستمائة ألف سنة ! ...

ـــ عجباً ! ... وكيف تجرد هكذا من لحمه ودمه وشرايينه ؟! ...

— هنا وجه الغرابة ! ...

— وأين بقية الجسم ! ...

— لم أعثر إلا على هذا الجزء ...

ووقف الرجلان مشدوهين أمام الجمجمة ... فهذا شيء جديد لا يوجد له نظير فى متاحفهم ... فإن الحروب الذرية قامت فى الأرض منذ مئات الآلاف من السنين ؛ فقوضت متاحف العهود القديمة ومكتباتها ... فلم يصل إلى زمانهم إلا خلاصة التجارب العلمية التى على أسسها قامت دنياهم الجديدة ...

وظهرت على وجه العالم الكيميائى عين الحيرة التى ظهرت على وجه قابيل يوم رأى الموت لأول مرة ينخل فى هابيل المقتول ...

وهز عالم الجيولوجيا رأسه ، ولمس الجمجمة بأصبعه ، وقال :

— لا شك أن هذا إنسان مثلنا ... ولكن ... كيف وصل إلى هذه الحال ؟ ... هنا السر ...

نعم .. لا بد أن تكون هنالك قوة تستطيع أن تحول الحركة فى الإنسان إلى هذا النوع من الجمود ! ...

قالها العالم الكيميائى وهو يفحص العظام بيده ...

ـــ الحركة ؟ ... الجمود ؟! ... يبدو لي أنه لا بد أن تكون للحركة نهاية ! ...

ـــ كيف ؟ ...

ألم تسائل نفسك مرة : « وأخيراً ... ماذا بعد ذلك ؟ ... » لقد سألت نفسى عن ذلك يوماً ... ربما كان علم طبقات الأرض الذى أمارسه يدفعنى إلى البحث فى الماضى،وهذا البحث فى الماضى يحملنى على التنقيب فى المستقبل ... ما مستقبلنا ؟ ...

ـــ مستقبلنا !! ...

ـــ نعم ... مستقبل جنسنا الإنسانى ؟! ...

ـــ ماذا فى رأسك ؟ ... شىء فى رأسك قد اختل !! ...

لفظها عالم الكيمياء وهو يحدق فى زميله مرتاباً ... فكلمة « المستقبل » عجيبة الوقع على آذان القوم فى ذلك العصر ... ليس هنالك غد بالنسبة إليهم ... وليس هنالك ليل ولا نهار ولا نوم ... فالضوء الصناعى أغناهم عن الشمس ، والأغذية الكيميائية أغنتهم عن النوم ... إنهم حركة دائمة كحركة القلب لا تعرف الهمود ولا الجمود ... لا وعى لهم لما يسمى

« الغد » ... أما وعيهم للأمس فلا يتجاوز عشرات الألوف من الأعوام ... لم يتغير خلالها الوضع عما هم عليه كثيراً ... فهم إذن لا يعرفون ولا تستطيع مداركهم أن تعى غير زمن واحد ، هو « الحاضر » الذى يبسط جناحيه الهائلين على أحقاب تبدو كلها لكيانهم الخالد كأنها يوم واحد ..

وشَخَص عالم طبقات الأرض ببصره إلى الفضاء ... وكأنه يحاول أن يرى فى الضباب ، وهمس كالمخاطب نفسه :

— ما دام هناك وجود ، فلا بد أن يكون هناك عدم وجود ...

— عدم ؟! ...

— نعم ... العدم ...

فانتصب عالم الكيمياء واقفاً ، وقال ...

— العدم ؟ ... ما هو العدم ؟ ... لأول مرة أسمع هـذه الكلمات العجيبة ... ماذا جرى لك أيها الزميل ؟! ...

— ألا ينتابك أحياناً هذا الشعور ؟ ...

— أى شعور ؟! ...

— الرغبة فى أن لا توجد ...

— من العسير على ذهنى فهم ما تعنى ، أو فهم ما بك ... شىء فيك قد اختل ... شىء فيك قد اختـل ! ...

وأسرع العالم الكيميائى يترك المكان كالهارب ، وذهب من فوره إلى

دار هيئة العلماء ، فعرض عليهم أمر عالم الآثار ... وما نطق به من ألفاظ غريبة المعنى مبهمة المرمى ... فتلقوا الخبر بدهشة ، وطلبوا حضوره ، فلما مثل بينهم ، سألوه بياناً عن تصريحاته ، فقال :

ــ نعم ... إن وجودنا الدائم هذا لا بد أن يكون بعده شيء ! ...

ــ أى شيء تقصده ؟ ...

ــ الموت ...

ــ الموت ؟! ... ما هذه الكلمة ...

ــ لست أدرى ... لقد تعبت من نفسى الآن ... إنه إلهام ... إنى مؤمن أنه يوجد شيء؛ فلنسمه : « الموت » ... لا بد أن نصل إليه يوماً ... اصدقونى القول أيها العلماء ... ألم يشعر أحدكم مرة بإغفاءة طارئة عابرة كخفقة الجفن ، أحس خلالها لذة وراحة من نوع غريب ؟! ... هذه اللمحة يمكن أن تطول ويمكن أن تمتد عبر الزمن حتى تصبح « عدم وجود » ... وتنقلب إلى ذلك الشيء الذى أسميه « الموت » ...

فهز العلماء رؤوسهم أسفاً ، وأطرقوا خجلا ... وقد أدركوا

أن زميلهم قد شط به الخيال ... ورأى أحدهم أن يطالبه بالدليل فقال :

ــ لا تنس أنك عالم لا يجوز له أن يجرى وراء وهم أو يستجيب إلى مجرد شعور ، قدم لنا برهاناً علمياً على أن هذا الذى تسميه « الموت » ممكن أن يوجد؟! ...

فأخرج عالم طبقات الأرض « الجمجمة » من حقيبته ، وعرضها على العلماء صائحاً :

ــ أيها الزملاء الأجلاء ... إن « الموت » قد وجد يوماً على هذه الأرض ... وهاكم الدليل ! ...

فتجمع العلماء على الجمجمة يفحصونها دهشين أول الأمر ، ثم لم يلبثوا أن تبادلوا نظرات السخرية والشك والارتياب ... ونبذها واحد منهم وهو يقول :

ــ هذا ليس دليلا على ما تزعم ، ولكنه دليل على أنه قد وجد على هذه الأرض من قديم قوم وصلوا فى العلم إلى ما لم نصل إليه اليوم ... فنحن ، يوم كنا نصنع بشراً فى المعامل منذ مئات القرون ، كنا نربى « النطفة » كما نربى البكتريا .. ولكن أقوام ما قبل التاريخ ، كانوا فيما يظهر ، يصنعون الهيكل الآدمى صنعاً ... ثم ينفخون فيه بعد ذلك ... هذه العظام التى تعرضها

علينا كانت « مشروع » خلق آدمى لم يتم صنعه لسبب من الأسباب ! ...

وافقت هيئة العلماء على هذه النظرية بالإجماع ، وحذروا عالم الجيولوچيا من الاسترسال فى أمثال هذه الترهات ، خوفاً على بسطاء العقول فى المجتمع ممن يستهويهم جو الخرافات ... وانصرف العلماء عن زميلهم الجيولوچى ، وتركوه غارقاً فى خزيه وخيبته ...

ولكن اليأس لم يتطرق إلى قلبه ... لقد كان شعوره الداخلى يوحى إليه أنه صادق النظر ... ومضى إلى صديق له يأنس إليه ويعول عليه ، من ذلك النوع الألطف الأرق من البشر ، الذى كان يطلق عليه « الأنثى » منذ خمسمائة ألف سنة ... يوم كان وجود هذا النوع ضرورياً لإيجاد هذا النسل ، أما بعد هذا التاريخ فقد زالت هذه الضرورة ... وبزاولها ضعف الاتصال بين النوعين لهذه الغاية ... حتى بلغ الأمر حداً اختفت معه الفوارق الجنسية بينهما ، بانتهاء الوظائف العضوية ... فإذا هما على مر الزمن قد صارا شبه نوع واحد ، لم يحتفظ أحدهما من خصال ماضيه بغير شىء من الرقة فى الطبع واللطف فى التركيب ... ولم يعد المجتمع يميز بينهما أو يذكر ماضيهما . إنما هو

صنف واحد من الإنسان ، يطلق عليه اسم قاطن الكوكب الأرضى ... لأن الأرض كلها هى الأخرى أمة واحدة ومجتمع واحد ... يعيش فى كنف « لجنة من العقول المدربة » هى حكومة الكوكب التى تشرف على إدارة شئونه العامة ، وتنظيم أسباب الراحة لسكانه ... ذهب العالم الجيولوچى إلى صديقه اللطيف ، وقال له :

— هل تثق بى ؟ ...

— نعم ...

— هل تؤمن بى ؟ ...

— نعم ...

— إذن فاسمع ...

وروى له القصة ، وعرض عليه الجمجمة ، وشرح له ما يعتقد باسطاً له فى الحجج كلما رأى فى وجهه علامات الدهشة ، فهذا شىء خارق ... بعيد التصور ... لأن الألفاظ نفسها لا تؤدى إليه ... يجب أن تفسر معنى « الفناء » أو « العدم » أو « الموت » تفسيراً محسوساً ، وهو أمر لا قبل لأحد به فى هذا العصر ... فلا يوجد شىء يموت حولهم ... إنهم لا يذكرون وجود الحيوانات على الأرض ... فقد انقرضت كلها منذ مئات

الآلاف من السنين ... أبادتها الحروب الذرية والكيميائية التى مسحت وجه الأرض مسحا ، وحلقته حلقاً ، وغسلته غسلا من كل حيوان ونبات وطائر وسمك ... فلم يبق للإنسان غير جوف الأرض يعيش فيه بمصانعه وبمعامله .. يطعم غذاء من غازات كيميائية تطلق فى البيوت « تستمد موادها من عناصر الجو وإشعاعات الأجرام ... » فضمرت معدته القديمة واختفى جهازه الهضمى وفمه وأسنانه ... فإذا هو رأس يفكر ، وأنف يستنشق به غذاءه من الهواء ، وطعامه من الغازات ، ويدان ضعيفتان وساقان هزيلتان لقلة الاستعمال ... لم يعد هناك فرق بين إنسان وبحر وكوكب ... إنه مثلها خالد ... ومثلها لا حاجة به إلى أن يعمل بيديه ليعيش ... بل إنه الآن شبه إله ... لا يلد ولا يولد ... يجهل الموت ويعرف الأبد ولا يدرك الأمس ولا الغد ...

وجد العالم الجيولوجى صعوبة فى أن يصور لصديقه ما يخامره من إحساس بنظريته ... لأن الأمر يستوجب شعوراً بالحدود الزمنية ... ليس أصعب من أن تحدِّث « إلها » عن ماضيه أو مستقبله فإن هذين الوصفين لا معنى لهما لمن « يوجد » دائماً ...

وأصعب من ذلك أن تحاول إفهام « إله » خالد شيئاً عن « البداية » أو « النهاية » ! ...

ونظر الصديق اللطيف إلى العالم الجيولوجي بسذاجة قائلا له :

— إني أصدقك ، ولكنى عاجز عن الفهم ...

— حقاً يا صديقى ... إنها لمشكلة ... ومن العسير أن أطالبك بإدراك شعاع لا أتبينه أنا نفسى ... ربما كنت مخطئاً ... ربما كان اشتغالى بتاريخ الطبقة الأرضية يخيل لى أوهاماً ... إن علمى ذاته لم يعد له محل ... ولم يعد له احترام فى نظر العلماء ... ولم يبق غيرى حريصاً عليه متابعاً له ... فالعلماء يؤكدون ... أنه ليس هناك شيء يسمى « التاريخ » لأنه لا يوجد خلف « حاضرنا » الخالد غير وهم المخبولين ... الحق أنى لا أدرى ... هل أنا مجنون ؟ ... أو أنى أرى شيئاً لا يراه غيرى ؟! ...

— إنك لست مجنوناً ...

— إنك تثق بى ... وهذا يسرنى ، ولكنه لا يقنعنى ... إنى أريد أن ترى ما أرى ...

— سأحاول ... ساعدنى ! ...

— نعم ... أساعدك ... قص على حياتك ! ...

— حياتى ؟! ... حياتى هكذا ... هكذا دائماً ...

هكذا ... إنك تعرفها ... لا شيء فيها يتغير ...

ــ نعم ... لا شيء فيها يتغير ! ... ولكن أتذكر ماذا كان أول الأمر ..؟

ــ أتذكر ؟ ... ما معنى أتذكر ؟ ...

ــ صدقت ! ... لا يمكن أن تكون لنا ذاكرة ما دمنا لا نعى الماضى ولا التاريخ ...

لماذا تكد ذهنك أيها الصديق فى هذه الأشياء المبهمة المريبة ... إنى أخشى عليك ... أخشى أن يصيبك من المجتمع نقد ، وازدراء ... إنهم يتهامسون عليك بالفعل ... وينصحون بالابتعاد عنك ... ويقولون : إن بك خللا غير مفهوم ...

ــ وهل تبتعد عنى أنت أيضاً ؟ ...

ــ لا ... إنى معك مهما يكن من أمرك ...

ــ أنا أيضاً لا أريد الابتعاد عنك مهما يحدث ! ... ماذا أسمى هذا الإحساس ؟! ...

وأطرق عالم طبقات الأرض لحظة ... كأنما يبحث عن تعليل لمشاعره الغريبة ... إن كلمة « الحب » كانت هى الأخرى قد انقرضت منذ مئات الآلاف من الأعوام ... انقرضت بانقراض الميل الغريزى بين الذكر والأنثى ... بعد أن تولت المعامل إفراخ

النسل ... وبزوال الحب زال الشعر والفن ... و لم يبق مكان لعاطفة غير عاطفة الزمالة أو الصحبة بين المواطن والمواطن من سكان الأرض ... وقلما التهبت هذه العاطفة ... حتى صارت إلى هذا اللون الغامض الذى يربط عالِمَ الجيولوچيا بصديقه ! ... لقد زال اتصال « القلوب » وحل محله اتصال « الأفكار » ... لذلك كانت الصلة القلبية بين العالم وصديقه غريبة فى ذلك العصر غرابة ذلك الشعور الخفى الذى يحير نفس العالِم الأثرى ...

وقلق الصديق على حال صاحبه فقال له :

ــ لو استطعت أن توضح لي ؟! ... لأول مرة أعجز عن قراءة فكرك ! ...

فرفع العالِمُ رأسه ونظر إلى صديقه ملياً ثم قال :

ــ لأن فكرى مضطرب مشوش ... لا أستطيع أنا نفسى أن أستخلص منه شيئاً واضحاً ... كل ما عندى إحساس باهت شاحب سحيق الغور ...

ــ إحساس بماذا ؟ ...

ــ إحساس بأنه يجب أن يقع شيء بعد « وجودى » ... يجب أن أحس لهذا الوجود « نهاية » ! ...

ــ نهاية ؟! ...

وبدا الجهد المرهق على وجه الصديق ... عين ذلك الجهد الذى كان يرهق البشر منذ مليون سنة عندما كانوا يحاولون تصور « اللانهاية » !...

ـــ نعم يا صديقى اللطيف ... هناك سر مغلق علينا ... هناك سعادة منتظرة خلف باب موصد ... هنالك لذة غريبة وراحة عجيبة فى حجرة ممنوعة لم تطأها قدم ...

ـــ ألنا أن نأمل فيها ؟ ...

ـــ نعم ... لو استطعنا أن « لا نكون » ! ...

ـــ لست أفهم ؟ ...

ـــ تلك الحجرة الممنوعة علينا ... تلك الحجرة التي تجثم فيها راحة من نوع مجهول لدينا ... أسميها أنا « الموت » ...

ـــ الموت ؟ ...

ـــ نعم ... الموت ...

لفظها العالِم فى شبه همس كأنه يحلم ... وكأنه يستعين بإلهامه الخفى ، ويستنير بإشراقه الداخلى ليلمح على ضوئه شبح ما يتخيل ... إنه لعسير على الخالدين أن يتخيلوا « الموت » وإن كان الإله يعجز عن شيء ... فهنا مكان عجزه ... أن يكون فى مقدوره أن يموت ... وإن كان قد حرم شيئاً فهذا ولا ريب موضع

حرمانه ..

ـــ هذه الراحة ... هذه اللذة .. هذه السعادة ... هذا الذى تسميه « الموت » ... لا بد أن تصل إليه ... نصل إليه معاً ، ما دمت تؤمن به ، وأومن أنا بك ...

قالها الصديق اللطيف برقة ملأت نفس العالِم ثقة ورجاء ... وانتهى بذلك الحديث بينهما فى تلك الجلسة ... ولم يكن بالطبع حديثاً بالمعنى المعروف قديماً ... فإن هذا الإنسان فى ذلك العصر لم يكن له فم ، ولم تكن له لغة إنما هى الأفكار تنقل من رأس إلى رأس ... وأصحابها جلوس فى صمت ...

***

ذاع خبر العالِم الجيولوجى . وشاعت فكرته ، واستفحل أمره ، انضم إليه كثير من المتشيعين له . وأحاط به وبصديقه المتحمس رهط من المؤمنين به ... وكان هذا أول نبى ظهر منذ مئات الآلاف من الأعوام ... فإن زوال الألم والأمل لم يدع حاجة إلى رسالة أو رسل ... أما وقد ظهر الأمل من جديد فى صورة تعطش إلى راحة مجهولة ، يبشر بها ذلك الإنسان الحالم الآمل المؤمن ... فلا أيسر من أن يجد أتباعاً يدينون بما يدين ، ويسيرون إلى حيث يسير ...

ولكن كانت أمامه عقبة ، هى « المعجزة » التى يطالبه بها كفاره والجاحدون لأفكاره ... وهم ما كانوا يرضون منه بغير معجزة واحدة : أن يميت لهم الحى ! ...

تلك كانت ساعة حرجه الكبرى ... كيف يستطيع ذلك بمفرده ... إن علماء الكيمياء وعلم الأحياء يقفون منه موقف الخصومة والتكذيب ...

لا بد أن تعينه قوة خفية ، إذا كان حلمه حقاً ، ووحيه صدقاً وإلهامه صحيحاً ...

وهنا لأول مرة أيضاً منذ أكثر من مليون سنة ، يعود الشعور بوجود « الله » الأكبر إلى الظهور فى النفس الإنسانية من جديد !...

وصاح ذلك النبى فى أعماق نفسه ...

ــ إذا لم أكن خدعت نفسى وخدعت أتباعى ، فلا بد أن تعيننى على « المعجزة » قوة فى الكون أعظم من جميع القوى ! ...

وتجلت هذه « القدرة » كما تجلت لبعض الأنبياء من قبل ، لأنها أرادت أن يكون هنالك تحول فى مجرى الإنسانية فى ذلك العصر ...

وإذا بنيزك ضخم من نيازك السماء يضرب وجه الأرض ويغور فيها فيسحق رأس إنسان فوق سطح بيته بجوف الأرض ، عندئذ أسرع النبى وأتباعه إلى ذلك الإنسان ليرقبوا ما وقع له ، ولكن الحكومة علمت بالأمر ، فبادرت تستخلص ذلك الإنسان من أيدى الأتباع ، لتشرع فى ترميم رأسه ... ورفض الأتباع تسليمه ، وأصرت الحكومة ، فوقعت الفتنة ، وحدث شغب هو الأول منذ عشرات الآلاف من السنين .... وانتصرت الحكومة آخر الأمر ، وحملت الرجل المسحوق الرأس حيث عالجوه أو أخفوه ... لا أحد يدرى ... أما النبى فاعتقلوه وقدموه إلى المحاكمة فشهد عليه زملاؤه العلماء بأنه مخبول ، وأن خياله خطير ... فحكم عليه بما يحكم على المجرمين والمفسدين ... أى باستبدال رأسه ، وهى عقوبة تعادل إطاحة الرأس فى الأزمان القديمة ، فقادوه إلى معمل كهربائى ... وسلطوا على خلايا تفكيره أشعة خاصة ، فإذا هى تضعف ، فأحلوا محلها تفكيراً آخر هادئاً دمثاً بسيطاً ... لا شخصية فيه ولا عنف ولا إرادة ...

وهكذا اختفت شخصية النبى وإن لم يختف جسمه ... ولكن رسالته ظلت باقية ... فقد لبث صديقه وأتباعه ينشرون فكرته خفية عن الحكومة ... مؤكدين للناس أنهم رأوا « الموت » فى

شخص ذلك الإنسان المسحوق الرأس ... ولولا أن الحكومة سارعت باختطافه لكانت « المعجزة » بادية للعيان فى كل مكان ...

***

مضى ألف عام اشتعلت خلالها العقيدة الدينية كما تشتعل الجمرات تحت الرماد ... وآزر الحركة بعض أصحاب العقول الممتازة ، ففصلوا فى مبادئ الرسالة وشرعوا ، ووضحوا فكرة « الله » الأكبر الذى فى مقدوره منح الإنسان سعادة روحية ، وراحة علوية ...

إلى أن أتى يوم أدرك فيه الأتباع أن النظام القائم وحده هو الحائل دون تحقيق ذلك الحلم الإلهى ....

فإن يعلم ذلك الحارس الصارم لجسم الإنسان ... الذى يحيط بقاءه بسياج من حديد ... ويعنى بخلود الجسد هذه العناية قد حجب عن الإنسانية عوالم الروح ومفاتنها ...

وتمكنت هذه الفكرة من نفوس الأتباع ... فقاموا ذات يوم بثورة جارفة اقتحموا فيها المعامل وحطموا الآلات ... فاضطرب النظام وسادت الفوضى ، وتعذر وصول الغازات المغذية إلى كثير من السكان ، فظهرت أعراض المرض على البعض ...

وساءت حال البعض إلى حد الخطر ، وتوالت هجمات الأتباع ، وزاد عددهم ، واشتد ساعدهم ، حتى استطاعوا يوماً أن يتجمعوا ويعتصموا بناحية من الأرض . استقلوا بها ، أقاموا عليها صرح دينهم الجديد ، فطرحوا سلطان الإله القائم « العلم » الذى أعطاهم جبروت «العقل» وسلبهم نعمة «القلب» ولذة «الغريزة» وآمنوا بإله الكون الخالق للطبيعة.. فتركوا له وللطبيعة الأمر..

ومرت مئات الآلاف من السنين ، فظهر « الموت » ، وبظهوره ظهر « الخوف » ، ثم غريزة المحافظة على النوع ... ولما كانت معامل النسل قد دالت دولتها ... فقد بعثت الطبيعة فى الأجسام رغبة الجنس ... وعندئذ بدأ النوع يتفرع من جديد إلى ذكر وأنثى ، وظهر « الحب » ....

وبظهوره ظهر « الفن » و « الشعر » ...

وهكذا حكمت الطبيعة بإلهها الأكبر الأرض مرة أخرى ... وعادت الأديان السماوية ... وعاد الشعراء ينشدون ويقولون :

« أيها الخالق الأزلى ... لك أنت وحدك الخلود والجبروت ...

أما نحن فلا نريد أن نكون سوى بشر ...

لنا جسم مرتو ، وقلب متقد ، وعقل متئد ...

أيتها الطبيعة الرحيمة ... لك أنت وحدك عمر الأبد ...
أما نحن فلا نريد غير عمر الندى ...
تهبط من السماء عند الفجر ...
وتصعد إلى السماء عند الضحى ...

الاختراع العجيب ! ..

اختراع عجيب ، ليس بأعجب المخترعات ، فما من شيء اليوم يثير دهشتنا أو يصدم خيالنا بعد أن عشنا العصر الذى نرى فيه ذرة لا ترى تتحطم فتخرج منها قوة تحطم مدينة عظيمة ومع ذلك فإن الاختراع الذى أتحدث عنه سوف يكون له أشد الخطر على مستقبل البشر ...

هذا الاختراع كغيره من المخترعات فكرة ليست جديدة.لقد تخيلها « ويلز » فى قصته « آلة الزمن » هو « جهاز » مثل جهاز الراديو يستطيع كل إنسان اقتناءه .. له جملة مفاتيح ، إذا أدرت المفتاح الأول شاهدت فى مرآة الجهاز ما يحدث لك بعد عام وإذا أدرت المفتاح الثانى أبصرت ما يقع لك بعد خمسة أعوام ، وإذا أدرت المفتاح الثالث رأيت مستقبلك بعد عشرة من الأعوام .. ولم يدخل بعد على هذا الجهاز من التحسينات ما يمكن الأفراد من رؤية مستقبلهم أبعد من هذا المدى ...

قد يسأل سائل: وأين هذا الجهاز؟.. ولماذا لم يعرض حتى

الآن فى الأسواق ؟ ...

حقيقة الأمر أن الشركة الأمريكية التي اشترت حقوق هذا الاختراع وتكفلت بصنعه وتعميمه ، قد توقفت فجأة عن المضى فى هذا المشروع ، ذلك أن المهندس الذى تولى تجربة أول جهاز تم صنعه لم يلبث أن انتحر بعد أيام ، وأراد أحد مديرى الشركة أن يجرب الجهاز مدفوعا بحب الاستطلاع ، فلم يلبث هو الآخر أن انتحر بعد أسابيع ... وتوالت سلسلة الانتحارات فى ذلك المصنع بين العمال والمهندسين والخبراء والمديرين ، وكل من جرؤ على إدارة مفاتيح مستقبله فى ذلك الجهاز العجيب ...

قام البوليس الأمريكى عندئذ بالتحقيق فلم يظفر بجواب أو بتعليل أو بتفسير ، لأن من مات قد دفن ومعه الجواب والتعليل والتفسير ...

إلى أن كان يوم أسعف الناس مهندساً حاول الانتحار ... وأنقذوه هو وسره من الموت ، ودفعوا به إلى المحققين ، فسألوه :

— لماذا أردت الموت ؟ ...

— إننى لم أتحمل الحياة ...

— هل وقعت لك كوارث أثقلت كاهلك ؟ ...

— لا ... لم يقع شيء بعد ...

— إذن أنت تخشى وقوعها في يوم من الأيام ؟

— لم يحدث لى شيء في مدى عشرة أيام ...

— هل أنت واثق من ذلك ؟ ...

— لقد رأيت ذلك بعينى رأسى فى مرآة الجهاز ...

— ماذا رأيت ؟ ...

— رأيت نفسى كما سأكون بعد عام ، وبعد خمسة أعوام ، وبعد عشرة أعوام ... لم أرَ شيئاً جديراً بالنظر أكثر من أن كرشى قد برزت لى وبعض التجعدات فى الوجه ، وبعض الشيب ، وبعض الترهل ، وزيادة فى مرتبى ، وطفلة جديدة أنجبتها امرأتى . لها عويل يصدع رأسى ... يالها من حياة مملة ! ... أأنا أسير إلى هذا الغد السخيف ! ... لطالما تخيلت المستقبل أجمل من ذلك وجهاً ! ... فإذا هذا الوجه قد أصبح معروفا لى بملامحه وخطوطه وقسماته وندوبه ؛ كأنه وجه زميل عادى تافه يصاحبنى فى العمل ويلازمنى فى المسكن ... لا أسمع منه جديداً ولا أرى فيه طريفاً ... كلا ... إن المقام مع مثله محال ... قد يدفعنى إلى التريث والاحتمال أملى فى أن يتغير فى

الغد شيء ... ولكن إذا كنت الآن أرى الغد بعيني ... فما قيمة الغد ؟! ... وإذا كنت أعيش في انتظار ماتأتي به الأيـام . وجاءت الأيام تلقى في لحظة بكل ما لديها في حجري ، فما معنى الانتظار ؟! ... ما فعلت بكل بساطة ... لم أجد للانتظار معنى بعد أن فقدت عنصر المفاجأة في حياتي ! ...

فتأمل المحقق قوله مطرقاً مفكراً ... ثم قال له وهو يحك رأسه :

ـــ لا أستطيع أن أوافقك على هذا اليأس من الحياة ...

فقال المهندس الذى شرع الانتحار :

ـــ ليس هذا يأساً من الحياة ... إنك لا تستطيع أن تفهم حقيقة إحساسى ؛ لأنك لم تَرَ ما رأيت ... إنه على كـل حال ... ليس اليأس ؛ بل شعوراً آخر لا أدرى كيف أصفه لك ... انتظر ... ألم يسبق لك أن ذهبت إلى السينما فشاهدت رواية من آخرها بعد أن فاتك الشطر الأول ...

ـــ بالطبع حدث لى ذلك ...

ـــ ماذا كنت تفعل بعدئذ ؟ ...

ـــ كنت أنتظر العرض الثانى لأشاهد ما فاتنى من الرواية ...

ـــ عظيم ، وبعد أن تشاهد ما فاتك وتأتى الحوادث الأخيرة التى تسبق لك مشاهدتها ... ماذا كنت تصنع ؟ ...

ـ كنت أنصرف طبعاً ...

ـ قبل الختام ؟ ...

ـ طبعاً ...

ـ ولماذا تنصرف ؟ ...

ـ ولماذا أنتظر وقد عرفت الرواية ؟ ...

ـ هذا بالضبط ما صنعته أنا ... بمجرد أن شاهدت الحوادث الأخيرة من حياتي في مرآة ذلك الجهاز ، عرفت روايتي بكل حوادثها وعقدها ومفاجآتها فلماذا تريد مني أن أنتظر ؟ ...

هنا فقط فهم المحققون كارثة ذلك الجهاز المخيف ... إنه يجرد « الحياة الآدمية » من عنصر « الغيب » كما تجرد « الرواية السينمائية » من عنصر « المفاجأة » وبهذا التجرد تتفكك عقدة الرواية ، فتصبح شيئاً لا يستطيع أحد أن يحياه ولا أن يراه ...

الأسطى عزرائيل ! ..

الحياة أقوى من الموت ... تلك حقيقة يراها من يتأمل حوادث يوم واحد من أيامه ، إن الموت رابض لنا فى كل خطوة ، ومع ذلك نتفاداه وننجو منه فى أغلب الأحيان ونقفز من فوق حبائله ؛ لأن يد الحياة تقودنا وتنقذنا ... الموت والحياة يلعبان منذ الأزل لعبة واحدة لا يغيرانها ... هى اللعبة التى يسميها الأطفال « استغماية » ... الحياة والموت أحدهما يختفى للآخر ويتربص به فى كل مكان ، والآخر يقول له : « أراك وأعرف موضعك » ! ... أرواحنا نحن الآدميين المساكين معلقة بكل شيء، وبأضأل شيء... إنها معلقة بأرجل الذباب ، وإبر البعوض ... ويد سائق السيارة والقطار والطيارة ... بل إنها قد تهتز وتتأرجح بين أصابع حلاّق يتناولك بالتزيين والتجميل وأنت أبعد الناس عن التفكير فى شر أو خطر ...

ذهبت فى أوائل الصيف أحلق ذقنى عند الحلاّق ، وأنا

بالحياة فرح مستبشر ... أغنى فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى أغانى الفلاحين وهم يقودون صفوف الإبل محملة بالبطيخ فى أفخر شوارع القاهرة ... وغرقت فى المقعد ، وأسلمت رأسى للحلاق وأغمضت عينى مستسلما لأعذب الأحلام ، مستقبلا بوجهى النسيم الصناعى من المروحة الكهربائية ... ووضع الحلاّق على ذقنى الصابون الرطب ، فشعرت بمتعة ... وراح يسن الموسى حتى لمع نصلها ، وجاء فأخذ رأسى بين يديه ، ثم همس فى أذنى قائلا بلهجة غريبة :

— لا مؤاخذة ! ... إنى أتوسم فيك ... فراستى لا تخيب ... لى عندك طلب بسيط ...

ورفع الموسى عن صدغى منتظراً ... فبادرت أقول له :

— تفضل ! ...

فأمسك برأسى واستأنف الحلاقة وهو يقول :

— هل تعرف حضرتك أحداً فى مستشفى المجاذيب ؟ ...

فدهشت ، ولكنى قلت بهدوء :

— إذا كانت فراستك التى لا تخيب توسمت فىّ أنى كنت نزيل الداز فإنى أشكرك ! ...

فأسرع يقول متأسفاً :

— العفو ... العفو ... لم أقصد ذلك ... إنما أردت أن أقول إنى أتوسم فيك حب الخير ، وأنك لا بد أن تكون صاحب نفوذ ، وتعرف أحداً من أطباء المستشفى ...

— لماذا ؟ ...

— لىّ شقيق مجنون أريد أن أخرجه ...

— مجنون ؟ ... وهل شفى ؟ ...

— إنه لم يكن مجنوناً خطراً ؛ ولكنها دعوى باطلة من المستشفى كما تعلم حضرتك ... إنهم دائماً يرون حبس الناس بالظلم ... كل ما فى الأمر أنه أحياناً تتراءى له خيالات ، ويتصور تصورات لاضرر فيها ولا غبار عليها ... فلا هو هاج ولا ماج ، ولا صرخ ولا صخب ، ولا ضرب ولا بطش ، ولا أحدث تلك الغوغاء والضوضاء التى يحدثها المجانين الذين يحبسون فى مستشفى المجاذيب ...

— عجباً ! ... وماذا فعل إذن حتى استحق أن يحجز ؟ ...

— لا شىء يا سيدى ... المسألة بسيطة : شقيقى هذا كان حلاقاً مثلى ... وكان يشتغل ذات صباح فى أمان الله ... وكان الوقت صيفاً ، والحر يغرى بالعطش كما لا يخفى عليك ، وكان فى يد شقيقى رأس زبون لا يتخير على حضرتك فشاءت له تخيلاته أن

يتصور رأس الزبون بطيخة ... وكانت فى يده الموسى فأراد أن يشقها بالطول ...

فارتعدت وصحت فى الحال :

ـــ يشق ماذا ؟ ...

ـــ يشق البطيخة ... أعنى رأس الزبون ! ...

قالها الحلاّق بكل هدوء ، وبنبرة طبيعية ...

فجمد الدم فى عروق ، وكان رأسى وقتئذ فى يده والنصل الحاد البراق يمر عند الحلق ... فأمسكت أنفاسى خوفاً وجزعاً ... ولكنى لم ألبث أن تجلدت وقلت له بوداعة ورفق لأدخل عليه الرضا وعلى نفسى الاطمئنان :

ـــ طبعاً شقيقك هذا شاذ فى العائلة ...

فقال بهدوئه المعتاد ونصله فوق حلقى :

ـــ الحقيقة أن هذا شىء فى العائلة كلها ... أنا نفسى أحياناً تخطر لى تصورات عجيبة ... خصوصاً فى موسم البطيخ ... كلام فى سرك شقيقى معذور ! ...

ولمعت عين الحلاق ببريق عجيب يضاهى بريق النصل الذى فوق حلقى فأيقنت بقرب الساعة . وتشهدت على نفسى وترحمت ...

وأغمضت عينى مستسلماً لا للذيذ الأحلام هذه المرة ؛ بل لمجىء الموت وخروج الروح ... ولم أفتحهما إلا على صوت رشاشة الكلونيا وهى تمطر وجهى ... وعلى صوت الحلاق وهو يقول لى : نعيما ...

فانتفضت ونهضت كمن ولد من جديد ، ودفعت حسابى والحلاق فى أثرى يوصينى بشقيقه والتوسط فى إخراجه وأنا لا أسمع منه ولا أعى ... وما إن وضعت قدمى فى الطريق حتى تنفست الصعداء ، وأقسمت أن أحلق بيدى أو على الأقل لا أدخل عند هذا الحلاق فى موسم البطيخ ...

معجزات وكرامات ! ..

استيقظ الراهب مبكراً كعادته ... لم تسبقه غير العصافير الناهضة من أعشاشها ... وقام إلى صلاته وعبادته وعمله فى تلك البيعة من إقليم الشرق ... فقد كان ذلك القسيس روحها ونورها ... له عند رجال الدين منزلة ... وله عند الناس احترام ... وكان أمام الباب نخلة صغيرة ، غرسها بيده واعتاد أن يسقيها قبيل الشروق ... وأن يتأمل الشمس يبزغ طرفها من الأفق أحمر كالبلحة ، ثم ترسل أشعتها إلى السعف المندى ، فتسقط عنه قطرات الفضة ... لتلفه في خيوط كالذهب ...

فرغ القسيس فى ذلك الصباح من سقى النخلة ... وهم بالدخول ، وإذا أمامه جماعة يبدو عليهم الغم والحزن ... تجرأ واحد منهم وقال بنبرة الضراعة :

ـــ أبونا ! ... أنجدنا ! ...وليس من ينجدنا غيرك ! ...

امرأتى على فراش الموت ... وهى تلتمس منك أن تباركها ... قبل أن تلفظ النفس الأخير ...

ـــ أين هى ؟ ...

ـــ فى قرية مجاورة ، والمطايا حاضرة ! ....

وأشار الرجل إلى حمارين مسرجين فى الانتظار ... فقال الراهب :

ـــ إنى لست على استعداد يا أبنائى ! ... تمهلوا حتى أرتب شؤونى وأخبر إخوانى ، وأعود إليكم لتمضوا بى ....

فقالت الجماعة فى صوت واحد :

ـــ لا نملك دقيقة ! ... المرأة تحتضر ... وربما وصلنا إليها بعد فوات الأوان ... امض معنا الآن من فورك إذا أردت أن تكون بنا بارا كريماً ، وللمرأة التى تموت منقذاً رحيما ... والمكان قريب ... وستذهب وتعود قبل أن تستقر الشمس فى الضحى ! ...

ـــ هلموا بنا ! ...

قالها القسيس بصوت فيه حماسة الشهامة وحرارة المروءة ... وتقدم والجماعة خلفه حتى اقتربوا من الحمارين ... فركبوا أحدهما ... وركب زوج المحتضرة الآخر ... وانطلقوا خارج البلد ...

وجعلوا يضربون الأرض ساعات ... والقس يسأل عن

الموضع ، وهم يحثون الحمار بالنخس قائلين : « وصلنا » ... فما لاحت لهم القرية إلا وقد انتصف النهار ، ودخلوها فاستقبلتهم كلابها بالنباح ، وأهلها بالترحيب ... وتوجه الجميع إلى الدار بالقرب من « داير الناحية » ... وقادوا القسيس إلى قاعة وجد فيها المرأة طريحة على فراش ... وقد شخصت ببصرها إلى السماء ... ناداها فلم تجب ... فهى من المنية قاب قوسين ! ... فشرع يستنزل عليها البركة ... ولم يكد يفرغ من ذلك حتى لفظت آهة طويلة شفعتها بشهيق عميق ظن معه القسيس أن روح المرأة تفيض ... ولكن أهدابها ارتعشت ، ونظرتها لانت ، وتلفتت تهمس :

— أين أنا ؟ ...

فقال القسيس دهشاً :

— أنت فى دارك ! ...

— علىَّ بشربة ماء ! ...

فصاح أهلها من حولها :

— هاتوا القلة ! ... هاتوا الجرة ! ...

وتسابق القوم إلى الإناء فأحضروه ... وشربت المرأة طويلا وتجشأت ... ثم قالت :

ـــ أما من طعام ؟ ... إنى جوعى ! ...

فبادر كل من فى الدار يأتى إليها بطعام ... وطفقت المرأة تلتهم الأكل ... والعيون من حولها تلتهمها دهشة وعجباً ، ثم تركت فراشها ونهضت تمشى فى الدار كاملة الصحة موفورة العافية ! ...

وعندئذ خر القوم على يدى القس ورجليه ، يشبعونها لثماً وتقبيلا ... ويصيحون :

ـــ أيها الرجل المبارك ! ... لقد حلت بركتك فى الدار ، وأحيت بركتك الميتة ! ... ماذا فى قدرتنا أن نعطيك ؟ ... وفاء منا بواجب الشكر ... واعترافاً منا بالجميل ! ...

فقال القسيس الذى أذهله الحادث :

ـــ إنى ما صنعت شيئاً أستحق عليه أجراً أو شكراً ... ولكنها قدرة الله ...

فقال صاحب الدار :

ـــ سمها ما شئت ! ... إنها على كل حال معجزة أراد الله أن تتم على يديك أنت أيها الرجل المبارك ! .... ولقد حللت فى دارنا المتواضعة ، وإنه لشرف وحظ ونعمة ... ولا بد أن نقوم بحق الضيافة على قدر ما تسمح به حالنا ! ...

وأمر بحجرة منعزلة فأعدت للضيف ..... وكلما استأذن القسيس فى الانصراف ، حلف صاحب الدار بكل محرج من الأقسام ألا يدع ضيفه المبارك يذهب قبل ثلاثة أيام ... أقل ما يجب نحو من أنقذ حياة امرأته ... وجعل يحفه بالعناية ويغمره بالتكريم ... حتى انقضت مدة الضيافة ... فأسرج المطية ... وحملها بالهدايا ... من فطير وعدس ودجاج ، ووضع فى يد القسيس خمسة جنيهات لصندوق الكنيسة ... ولم يكد يشيعه إلى الباب ويقيمه على الحمار حتى أقبل رجل يلهث وارتمى على قدم القسيس ... يتوسل ويقول :

— أبونا ! ... حديث معجزتك بلغ القرى المجاورة ... لى عم فى مقام أبى ، على فراش الموت ... وهو يأمل فى بركتك ... فلا تترك روحه تصعد قبل أن تحقق أمله ! ...

فقال القسيس متردداً :

— ولكنى يا بنى قد تهيأت للعودة ! ...

— هذا أمر لم يستغرق منك وقتاً .. ولن أدعك حتى تذهب معى إلى عمى ...

وأمسك بزمام الحمار وسار به ... فقال القس :

— وأين عمك هذا ؟ ...

ـ هاهنا ... على مسيرة دقائق ...

فلم ير القسيس بدأً من الإذعان ... وسار مع الرجل ساعة إلى أن دخل القرية الثانية ... ورأى فيها داراً كالدار الأولى ... ومريضاً على فراش ... قد أوشك على الموت ... وحوله أهله يتقلبون بين اليأس والرجاء ... فما أن دنا القس من المريض واستنزل عليه البركة حتى حدثت المعجزة ... فإذا المحتضر يهب قائماً يطلب الطعام والشراب ... والقوم من الأمر في دهشة ، ويحلفون بالأيمان المغلظة أن يؤدوا نحو الرجل المبارك واجب الضيافة ثلاثة أيام بالتمام ...

وانقضت مدة الضيافة بين تكريم ورعاية وحفاوة وعناية ... وشيعوا الضيف إلى أبواب القرية مثقلا بالهدايا ... وإذا رجل من قرية ثالثة يفد عليه ، ويدعوه إلى زيارة قريتهم لتحل البركة ... ولو لمقدار ساعة ... فإن شهرة القسيس المبارك قد طبقت جميع القرى ... وما استطاع القس من الرجل خلاصاً ولا فكاكاً ... فقد قاد ذاك الرجل لجام الحمار ... وذهب به إلى دار في قريته ... وجد فيها غلاماً كسيحاً ؛ ما أن لمسه القس حتى نهض يركض على قدميه ويجرى بين تهليل أهل الدار وهتاف الصغار والكبار ... وأقسم الجميع على واجب الضيافة نحو

صاحب المعجزات ... فأدوها على أحسن وجه ... ثلاث ليال ، لا تنقص ليلة ، أسوة بغيرهم ... حتى إذا انتهت المدة قاموا إلى الضيف فأضافوا هدايا جديدة إلى ما معه من هدايا ... حتى كاد ينوء بها حماره ... ونفحوه من المال فوق ما منح فى القريتين السابقتين من مال ... حتى اجتمع له ما يربو على عشرين جنيهاً ، وضعها فى كيس أخفاه فى صدره ... وامتطى الحمار ... وطلب من أهل الدار أن يحرسوه حتى بلده ... فهبوا كلهم إليه ... وساروا خلف مطيته وهم يقولون :

ـــ نحرسك بقلوبنا ... ونفديك بأرواحنا ! ... ولن نسلمك إلا إلى ذويك ... فأنت عندنا تساوى ثقلك ذهباً ! ...

فقال القس و لم يفطن إلى عبارتهم :

ـــ سأحملكم بعض المشقة ... ولكن الطريق غير مأمونة ... والعصابات اليوم منتشرة فى الأقاليم كما تعلمون ! ...

فقالوا :

ـــ حقاً ... إنهم ها هنا يخطفون الآن الرجال فى رائعة النهار ! ...

فقال القس :

ـــ حتى السلطة عاجزة عن دفع هذا الشر المستطير ... لقد قيل لى : إن عصابات الخطف تستوقف اليوم السيارات العامة فى الطرق الزراعية ، وتصعد تجيل الأنظار فى الركاب ؛ فمن وجدته على شيء من الوجاهة والثراء أنزلته وجرته معها ؛ لتطالب أهله بعدئذ بدية كبيرة ... وقد كان ذلك يحدث أحياناً وبعض رجال الأمن فى السيارات ... علمت أن اثنين من رجال الحفظ كانا ذات مرة بين ركاب سيارة من تلك السيارات ... فلما اعترضتها العصابة ، واختارت من الركب من اختارت ، استغاث برجلى الحفظ الحاضرين .. فما كان منهما ـــ لخوفهما من بأس اللصوص ـــ إلا أن قالا للمخطوف : انزل معهم وخلصنا ! ...

فضحك القوم ، وقالوا للقس :

ـــ اطمئن ! ... ما دمت معنا فلن تنزل من فوق حمارك إلا فى بلدك ! ...

ـــ إنى أعرف شهامتكم ! ... لقد غمرتمونى بكرمكم وتقديركم وسخائكم ! ...

ـــ لا تقل ذلك ... أنت كنزنا ...

وساروا خلف القس يتحدثون بمناقبه ، ويفيضون بذكر

معجزاته ، وهو يصغى إلى حديثهم ويتأمل ما وقع ، وأخيراً صاح :

- حقاً هذا ... شيء عجيب ما حدث لى هذه الأيام ! ... أترى إلى بركتى وحدها يعود الفضل كله فى هذه المعجزات ؟ ...

فقالوا له ؟ ...

— وهل تشك فى ذلك ؟ ...

— إنى لست نبيا حتى أقوم بذلك كله فى سبعة أيام ، ولكنكم أنتم الذين جعلتمونى أصنع هذه المعجزات ! ...

فقالوا جميعاً فى صوت واحد :

— نحن ؟! ... ماذا تعنى ؟ ...

— نعم ... أنتم المصدر الأول ! ...

فتبادلوا النظرات ، وهمسوا :

— من قال لك هذا ؟! ...

فمضى القس يقول باقتناع :

— إيمانكم ... إنه الايمان جعلكم تحققون كل ذلك ... إنكم لا تعرفون ما فى نفس المؤمن من قوة ... الإيمان قوة يا أبنائى ...

الإيمان قوة ! ... المعجزة ثاوية فى قلوبكم ... كالماء فى الحجر ... لا يفجرها غير الإيمان ! ...

وظل بمثل هذا الكلام يتحدث ... والقوم خلفه يهزون رؤوسهم ... وأمعن فى حماسة القول وحرارة الوعظ ... فلم يفطن إلى القوم خلفه وهم يتسللون ، الواحد بعد الآخر ... فما بلغ حدود بلده وثاب إلى نفسه ، والتفت خلفه يشكر مشيعيه وحارسيه حتى عقد لسانه العجب ... لم يجد خلفه أحداً إلا الحمار الذى يحمل أشياءه ! ...

و لم تطل دهشته ... فقد وجد ذويه وإخوانه ومرءوسيه من رجال الكنيسة ... يندفعون نحوه ... يضمونه ويلثمون يده ، وعبرات الفرح والتأثر تسيل على خدودهم ... وتماسك واحد منهم وقال :

ـــ عدت إلينا سالماً ... أخيراً ! ... لقد وفوا بوعدهم فليأخذوا الأموال ، وليعطونا « أبونا » ! ... كل مال فداك يا « أبونا » ! ...

وفطن القس إلى كلمة المال ، فصاح :

ـــ أى مال ؟ ...

ـــ المال الذى دفعناه للعصابة ! ...

ـــ أى عصابة ؟ ...

ـــ التى خطفتك ! ... لم ترض بأقل من ألف جنيه أول الأمر ... قائلين : إن ثقلك يساوى ذهباً ! ... ولكننا توسلنا إليهم أن يقبلوا النصف ؛ فرضوا أخيراً ... ودفعنا لهم دية إرجاعك من صندوق الكنيسة خمسمائة جنيه ! ...

فصاح القس :

ـــ خمسمائة جنيه دفعتموها من أجلى ؟! ... قالوا لكم إنى كنت مخطوفاً ؟ ...

ـــ نعم ... بعد اختفائك بثلاثة أيام جاءتنا جماعة ، وقالوا إن عصابة خطفتك فى الصباح وأنت أمام الباب تسقى نخلتك ! ... وأقسموا لنا أنك هالك إن لم ندفع لهم ديتك ... أما إذا دفعنا فإنك تحضر لنا سالماً بعد ثلاثة أيام من الدفع ! ...

فتأمل القس هذا القول ، وكر بذاكرته إلى ما وقع ، وقال كالمخاطب نفسه :

ـــ حقاً ... هذا معقول ... هؤلاء الموتى والمرضى والعجزة الذين هبوا ناهضين من بركتى ! ... يالها من براعة ! ...

وأقبل ذووه من جديد يفحصون جسمه وثيابه قائلين

فرحين :

ــ كل شيء يهون إلا سلامتك يا « أبونا » ! ... لعلهم لم يسيئوا إليك فى أيام خطفك ! ... ماذا صنعوا لك ؟! ...

فقال وهو ذاهل :

ــ جعلونى أصنع معجزات ... ولكنها معجزات قد كلفت الكنيسة ثمناً باهظاً ! ...

مؤتمر الحب ! ..

كانوا أربعة حول مائدة « قهوة » على شاطئ النيل ... ينظرون إلى غروب الشمس صامتين ... ويتأملون كالحالمين أشعتها الشاحبة تلون بحمرة خفيفة قلاع المراكب البيضاء، كما كان الحياء — فيما مضى — يلون وجه العذراء ...

هؤلاء الأربعة هم : صحفى وشاعر وموسيقى وامرأة ، كل شىء فيهم كان ينم على أن المرأة معبودتهم ، ولكنهم يكتمون ... أما هى فلم تظهر بعد إلى أيهم مالت ؟ ... ولا أيهم اختارت ؟ ...

طال صمتهم حتى ضجر أحدهم ، فصفق بيديه وصاح :

— أفيقوا ... وافتحوا لنا ...

— زجاجة « شمبانيا » ! ...

قالها الموسيقى على عجل ... فقاطعه الشاعر :

— بل موضوعا نتحدث فيه ...

فقال الصحفى :

ـــ فى السياسة بالطبع ...

ـــ أعوذ بالله ! ... إنى أقابل هذا الاقتراح بالرُّفض ...

ـــ أتريد أن يكون لك أنت أيضاً فى مجلسنا هذا حــق « الفيتو » أو الاعتراض والنقض ؟! ...

فتدخل الشاعر حسما للنزاع :

ـــ إذا أردتم الإنصاف فإنى أقترح أن يكون الموضوع مما يهمنا جميعاً ... ابحثوا عن موضوع يهم الجميع ! ...

ـــ الحب ...

أطلقتها المرأة كما تطلق قنبلة صاروخية ... بسرعة وبغير تردد ، ونبرة الواثق المطمئن ...

ـــ الحب !؟ ...

خرج اللفظ من أفواه الرجال ، كما تخرج كلمة « آمين » من أفواه المصلين ...

ومضت المرأة تقول :

ـــ إنه بالتأكيد يهمكم أجمعين... إنه يهم الصحفى...وهل تستطيع أيها الصحفى أن تنكر أن أعجب خبر نشر فى القرن العشرين هو حب ملك الإنجليز لـ «ليدى سمبسون»، ونزوله عن العرش الضخم من أجل هذا الحب!؟... وأنت أيها الشاعر هل تجحد

أن الحب هو الذى أثار حرب « طروادة » وألهم « هوميروس » الإلياذة ... أخلد شعر على الدهر ؟ ... وأنت أيها الموسيقى هل تنفى أن المزمار منذ وجد ، والقيثارة منذ صنعت لهما هدف غير التعبير عن الحب ؟! ...

فقال الجميع بصوت واحد :

ـــ صحيح ...

وسكتت المرأة سكوت المنتصر الذى اعتاد الظفر ...

ولكن الرجال الثلاثة مالبثوا أن التفتوا إليها وسألوها بلسان واحد :

ـــ وأنت ؟ ...

ـــ أنا !! ...

وبدت الحيرة فى وجهها قليلا ... أمجانين هم ؟ ... أتسأل امرأة عن أمر هو بالنسبة إليها البداهة عينها ... ولكنها تماسكت وتصنعت ومثلت ، وهى بالسليقة خير ممثلة ... وقالت :

ـــ الحب !؟ ... لست أدرى ما هو أيها الصحفى ... وأنت أيها الموسيقى ؛ ثم أنت أيها الشاعر ، أخبرونى : ما هو الحب ؟ ... ومن استطاع منكم إقناعى فاز بقلبى ! ...

وغرقت فى مقعدها ... وأسندت رأسها إلى كتفها ...

وتأهبت للاستماع إلى الرجال الثلاثة وهم يتبارون أمامها لنيل الجائزة الكبرى ! ...

تنحنح الصحفى ... وهرش رأسه ثم قال :

ــ اللهم اجعل قلبها من نصيبى ! ... تريدين أن تعرفى ما هو الحب ؟ ... الحب هو « خبر » يستقى من القلب ... ويسأل فيه العقل فيكذبه ... ولكن القلب يؤمن به ويجازف بإعلانه ، متحملا وحده مسئولية النشر ! ...

فقال الموسيقى :

ــ بل الحب « لحن » يعزف على أوتار القلب ... وكلما قطع العقل منه وتراً ، زاد اللحن طرباً ! ...

وقال الشاعر :

ــ إنما الحب « قصيدة » تنفجر من القلب معانيها ، وتخبو روعتها إذا وضع العقل أوزانها ! ...

فقالت المرأة :

ــ إنى لم أسألكم تعاريف ... إنما أريد منكم تجاريب ... قولوا لِي ماذا يحس كل منكم إذا اخترته حبيباً لقلبى ؟ ... أنت أيها الصحفى ... بماذا تشعر ؟ ...

فقال الصحفى :

— أشعر أنى أغار عليك من هذه الشمس الغاربة ... لو لمست أشعتها خديك ... خشية أن تخطف وهى ذاهبة شيئاً منك ، ولن أسمح بابتسامة منك تلقى إلى هذين الصديقين ؛ بل اللصين ... إنهما سينقلبان فى نظرى نشالين يتربصان بلؤلؤة من لآلئ بسماتك وكلماتك ونظراتك ... لن أدع مخلوقاً يأمل فى ذرة من فتات مائدتك الحافلة بالسحر والفتنة ... كل الرجال يصبحون فى عينى قطاع طرق إذا اقتربوا من كنوزك ...

قالت المرأة باسمة :

— وما بالك الآن هادئاً ، لاتحرص لا تغار ؟! ...

— أحرص وأغار الآن على ماذا ؟ ... إن عطفك علينا الساعة نحن الثلاثة لطيف ، ولكنه يدفعنى إلى شىء ... وأين هو ذلك الذى يحرص دون الباقين على أن يسور قطعة أرض يملكها بالمشاع مع آخرين ؟ ... إذا ملكت أنا وحدى حرصت وغرت وسورت ...

— الملكية إذن هى أساس الحب عندك ...

قالتها والتفتت إلى الشاعر :

— وأنت ... ما شعورك لو آثرتك بحبى ؟ ...

فقال الشاعر :

ـــ أحس أنك قد طلعت من مشرق « قلبى » لتحلى فى الدنيا محل تلك الشمس الغاربة ... أحس أنك ضياء حياتى ، وضياء كل الكائنات ... أشعة عينيك دفء لِي ولكل المخلوقات ... سأدرك أن جمالك لم يخلق لسعادتى وحدى ... وأنك كهذه الشمس أكبر من أن تملكها يداى بمفردى ... وإنما أنت نعمة للناس ، لن أغار إذا أرسلت نسماتك كالأشعة تملأ قلوب العباد نوراً ورحمة وسلاماً ... سأسير إلى جانبك مزهواً فخوراً كلما رمقتك العيون ... لأنى سأعرف أن الجماهير قد رأت فيك ما أرى ، وأعجبت بما أعجب ، وآمنت بما أومن ... إن آية الله فى حسنك يجب أن تبلغ للناس كافة ... ما أنت إلا كتاب مقدس لم ينزل لأتلوه وحدى دون البشر ! ...

ـــ الشيوعية إذن هى أساس الحب عندك ! ...

ونظرت إلى الموسيقى :

ـــ وإذا فضلتك أنت ؟ ... فماذا تشعر ؟ ...

فقال المو سيقى :

ـــ أشعر أن شمس الفن قد أشرقت فى قلبى ... ولن يكون لها بعد اليوم غروب ... فإن الألحان التى ستخرج من وحيك لن يسمع مثلها بشر ... إن قيثارة « أورفيوس » التى قاد بها

الضوارى والأنعام ؛ لن تلحق بقيثارتى التى سأخلب بها العقول وأستلب الأفهام ... لن تعرفى موتاً أبداً أيتها المرأة ؛ لأن الخلود هو هديتى إليك ... أنغامى تهبط من إلهامك كما يهبط الندى من صميم الفجر : ستبقى على الدهر تردّدها الأفواه بعد الأفواه ...

— الفن إذن هو أساس الحب عندك ؟ ...

وأطرقت فى شبه يأس .. وطال إطراقها ...

فاستعجلها الجميع فى صبر نافد :

— تكلمى واحكمى وانتخبى من بيننا ...

فقالت :

— لا أريد رجلا يحب الامتلاك أكثر منى ، ولا أحب رجلا يعبد ذاتى أكثر من ذاته ... ولا أبغى رجلا يهيم بفنه أكثر من شخصى ...

وأشاحت بوجهها عن الثلاثة ، وطفقت ترسل بصرها إلى الشفق الأحمر المراق على مصرع الشمس عند الأفق ...

وخيم صمت قطعه الصحفى قائلا :

— أرأيتم ؟ ... أما كان خيراً لنا أن نتحدث فى السياسة ؟ ...

فوافق الموسيقى بهزه رأسه ... ولكن الشاعر قال :

— وهل تحسبوننا خرجنا عن السياسة ؟ ... ياللمرأة ! ...

إنها مثل الدنيا ... لا يدرى الإنسان كيف تفهم ، ولا كيف تحكم ؟ ... تضاربت فيها المذاهب ، وتناقضت النظريات ... من رأسمالية ... إلى شيوعية ... إلى فنية إلخ ... فما اهتدى أحد إلى مفتاحها ... ولا وفق إلى فك عقدها ومعضلاتها ... ولا إلى فتح مغاليقها ، ولا إلى حل رموزها وأسرارها ...

فعادت إليهم المرأة بوجهها قائلة :

ـــ لأنها أبسط من ذلك كله لو تعلمون ! ...

امرأة غلبت الشيطان !.

كانت دميمة هذه المرأة ! ... لم تعرف ربيع العمر ... ولكنها عرفت خريفه وشتاءه ... لم يورق لها أمل ، ولكن دموعها هطلت كالمطر ، والفرح تساقط فى قلبها كأوراق الشجر ... وبرد الحرمان من متع الجسد قد ضرب من حولها نطاقاً ، إنها جزيرة الكآبة فى محيط الكون ، هكذا تعيش ، وهكذا ستموت ... لن يضم خصرها رجل ... ولم تعرف شفتاها غير الصلوات لسماء لا تسمع واللعنات على قدر لا يرحم ...

وفى ذات ليلة عصفت فيها الرياح الهوج ، وزمجرت الزوابع الثائرة ، لا خارج حجرتها ؛ بل داخل نفسها ... صاحت صيحة اهتزت لها أركان كيانها القبيح :

— أيها الشيطان ... لم يبق إلا أنت ! ..

وأطرقت فى شبه غيبوبة ! ... وإذا الجدران تنشق ويظهر لها الشيطان كما ظهر من قبل للعلامة « فوست » والشيطان لا يصم أذنيه عن الدعاء ... إنه مرهف السمع ، سريع فى تلبيته

النداء ... قال لها :

ــ ماذا تريدين أيتها المرأة ؟ ...

ــ الجمال ... الحياة ... المتعة ...

لفظتها كما يلفظ الظمآن كلمة « الماء » فى تيه الصحراء ، فقال لها الشيطان :

ــ أتعرفين الثمن ؟ ...

ــ خذ الثمن الذى تريد ! ...

ــ روحك أذهب بها إلى الجحيم ! ... ذلك عملى فى الأرض ... أسعى لجمع الأرواح أعمربها مملكتى « جهنم » لنرى آخر الأمر أيهما الظافر بأكبر تعداد : أنا الجالس على عرش النار ، أم ذلك على عرش الفردوس ؟ ...

ــ أعطنى المتعة فى الأرض عشر سنين ، ثم اذهب بى بعد ذلك إلى حيث شئت ... إن الجحيم لا تخيفنى ، فأنا الآن فى جحيم ! ...

ــ اتفقنا ... لك المتعة عشر سنين ... وأنت لى بعد ذلك ...

ــ وحررا بدم المرأة الصك المعهود ... ووقعت عليه بإمضائها ... ومس الشيطان بيده جسد المرأة فانتفضت ...

وأشار لها بأصبعه إلى مرآة الخزانة ... فنظرت فإذا جمال يضىء منها كأنه شهاب ... إنه جمالها ... أهى صاحبة هذا الجسم ؟ ... ألها هى هذه الروعة والفتنة والسحر ؟ ...

وألقت المرأة نفسها فى نبع الحياة تعب ... وغمرت جسدها فى بحر الملذات يغوص ... وجرفها تيار الأيام إلى السنة العاشرة ، فطفت على السطح كالقربة ، ارتوت وامتلأت بماء المتع وانتفخت ...

وجاءها الشيطان وفى يده الصك يذكرها بقرب الموعد فقالت له :

— نعم ... أذكر ولم أنس ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟ ...

— هنالك متعة أشعر لها بظمأ ...

— أهنالك من المتع ما لم تذوقيه بعد ؟ ...

— متعة الروح ! ... تلك متعة لا بد أن تأذن لى بها ... طبقاً للصك ... ألم تتعهد لى بأن تنيلنى كل المتع فى عشر سنين ... أمامى شهران حتى أتم المدة ... لقد سئمت المتع الجسدية ... لى عطش شديد للمتع الروحية ... أنلنى متعة الروح أيضاً فى هذين الشهرين ، وخذ روحى إلى الجحيم ...

— لك ما أردت ... إنى كما ترين ، أمين فى تنفيذ الشروط ...

واختفى وترك المرأة ... فقامت لساعتها وخلعت دمالجها ونبذت بهارجها ... وارتدت الخشن من ثياب النسك وذهبت وأدت فرائض الحج ... وغرقت فى التأملات السامية ... وانقطعت للأعمال الصالحة ، وأوغلت فى الحياة العليا الطاهرة ، حتى انصرم الشهران ، وجاء الشيطان يطالب بوفاء العهد ... فإذا هو يرتعد لمرأى المرأة ... ياله من جمال يدثر كيانها ؛ ليس هو الجمال المضىء كالشهاب المحرق ... ولكنه نور عميق لطيف يعرف مصدره العلوى ... فارتاع منه ... لكنه تجلد وتقدم نحو المرأة قائلا :

— حانت الساعة ... هيا معى إلى الجحيم ! ...

— هلم بنا ...

قالتها المرأة طيعة مذعنة ... لا مطل فى لهجتها ولا فى نيتها ، وسار الشيطان ، وسارت هى خلفه حتى بلغا باب جهنم ... فلما أحس الزبانية بقدوم ملكهم ، فتحوا الأبواب على مصاريعها فدخل ملك النار ، وأرادت المرأة أن تدخل خلفه .. فما أن وضعت قدميها على العتبة ، حتى هبت فى الجحيم ريح

تراجعت لها ألسنة اللهب، فدب الذعر فى قلوب الزبانية ، ودهش الشيطان وفزع وصاح وقد ردد صيحته أهل النار :

— ما هذا ؟ ... ما هذا ؟ ...

وهنا امتدت أيدى الملائكة حراس الجنة ، فاختطفت المرأة وهى تصيح قائلة للشيطان :

— هذه المرأة لنا ...

فصاح الشيطان :

— بل هى لى ... روحها لى بمقتضى الصك ... انظروا !! ...

— نحن لا ننظر فى صكوك ... بل ننظر فى أرواح ... هذا روح من أرواح الجنة ...

— بل من أرواح النار ... لقد دمغ بطابع النار منذ عشر سنين ...

ولكن نسيم الجنة دخل فيه منذ شهرين ، هذا النسيم الذى ترونه كريح صرصر لا تطيقها نيرانكم ، ولا يقف فى وجهها لهبكم ...

— لقد خدعتنى إذن هذه المرأة ! ...

وعندئذ صاحت المرأة وهى فى أيدى الملائكة :

ــ لم أخدعك ... إنى وفية بعهدى ... خذنى إلى الجحيم ... دعونى أيها الملائكة أذهب إلى الجحيم ... هكذا وعدت ... ومن الفضيلة أن أبر بوعدى ولا أنكث عهدى ولو مع الشيطان ! ...

فقال الشيطان :

ــ أسمعتم ؟ ... إنها لى ... دعوها تلحق بى ! ...

فجذبها الملائكة إلى الجنة وهم يقولون :

ــ لو تنكرت لك الساعة وتنصلت لدفعنا بها إليك ...

ــ يا له من منطق ... إنها تصيح بكم معترفة أنها لى فيكون هذا حجة علىّ ودليلا ضدى ؟! ... لقد أقرت بالصك ... أقرت بأن روحها لى ...

ــ نعم روحها الأول ... ولكن أين الآن روحها الأول ؟ ... لقد أعطتك روحها الأول فابحث عنه ... أما روحها هذا فهو لنا ... هلمى بنا أيتها المرأة الطاهرة ...

فتوسلت المرأة قائلة :

ــ إنها جريمة أن أنكص عن الوفاء ... دعونى بربكم أذهب إليه وأكفّر عن ذنوبى الأولى ...

فقالت الملائكة :

ــ ليس لك ذنوب أولى ... لقد ذابت فى نور طهرك

الأخير ...

— إذن لا تعرضونى لذنب جديد : هذا المطل لصك واجب الوفاء ...

— لا شأن لك بهذا الأمر !... هلمى بنا ... هلمى بنا ...

فصاح الشيطان :

— يا للعجب ! ... امرأة فاضلة تريد الحرص على شرف كلمتها ، فتأبون أنتم إلا تحريضها على سفالة الخلق ! ...

فقالت الملائكة :

— أتعترف بأنها امرأة فاضلة ! ... إذن أين تذهب الفاضلات من النساء ؟ ... إلى النار أو إلى الجنة ؟ ...

وهنا ضاق الشيطان بالجميع ذرعا ، فقال :

— تبًّا لكم ... تبًّا لكم ... خذوها وخلصونى ... أليست روح امرأة ! ... إنها ليست أكثر من امرأة ... فلتذهب إلى ... إلى الجحيم ... أقصد إلى الجنة ... ولكنى لن أنسى أنها خدعتنى ... خدعتنى يوم سمت « الفضيلة » متعة ! ...

الحبيب المجهول ! ..

من هو ؟! ... لم أكن أدرى أين هو ؟ ... وهل كنت أدرىّ ؟ ... مصيبتى هى جهلى به ... ولو أنى كشفت عن حقيقته فى الوقت المناسب لما كان قد حدث لى الذى حدث ! ...

القصة بسيطة ، تقع لكل إنسان فى كل حين : سيارة يقودها صديق ، يمر بك فى الطريق ، فيقف ويدعوك متفضلا إلى الركوب ، ليوصلك إلى حيث تريد ، ماذا فى هذا من غريب أو مريب ؟ ... لا شىء بالتأكيد ، وهذا ما وقع لى بالضبط :

كنت أسير ذات عصر فى طريقى إلى منزلى ، أمشى الهوينا بمفردى ، أتأمل الأشياء حولى فى رضا ، فالسير على الأقدام متعة وفائدة... وإذا سيارة فخمة تقف على مقربة منى، ويطل منها صديق يشير إلىّ ويدعونى أن أركب ، فأردت الاعتذار إيثاراً لرياضة المشى ، فألح وأصر ، وفتح باب السيارة ونزل ليأخذ بيدى ويجلسنى فى مقعده ... فلما دنوت ونظرت ، بهت ،

ذلك أن السائق كان غادة لم تقع عيني على أجمل منها ... وكان المقعد الذى دعيت إلى الجلوس فيه إلى جوارها ، فلم أر من سلامة الذوق أن أتراجع ؛ بل إنى لم أفطن إلى نفسى إلا وأنا راكب ، والسيارة تنهب بنا الأرض ، والصديق فى المقعد الخلفى يسألنى عن وجهتى ، وأنا لا أدرى بماذا أجيب ... هنالك نوع من الجمال يعمى البصيرة ، كما يعمى مصباح السيارة البصر ، فلا بد من وقت تفرك فيه عينيك لترى ، ولا بد من فترة تسترجع فيها فطنتك لتدرك ، وعندما مرت الفترة ذهبت السَّكرة ... كان منزلى قد اختفى شبحه وراءنا ، وزال أثره ، فأفقت صائحاً فيها :

— بيتى ... بيتى ! ...

فأوقفت السائقة الجميلة السيارة فى الحال ، وأرادت أن تدور بها لتعود بنا أدراجها ... وإذا سيارة أخرى كانت آتية من خلف قد اعترضتنا ، ووقفت، ونزل منها رجل يتفجر غضباً ، وأقبل نحونا مسرعاً ، ورأيته قد دنا منى ، وأمسك بمقبض الباب ليفتحه عنوة ، وخيل إلىّ — من شرر عينيه — أنه يريد بى شراً ، وهنا سمعت صديقى الجالس خلفى يلفظ صيحة :

— ضبطك ! ... انطلقى بالسيارة إلى آخر سرعة ! ...

وإذا بالغادة ، وقد لمحت وجهها قد امتقع ، وأمسى — حتى فى شحوبه جميلا كالوردة البيضاء المشربة بالصفرة — قد اندفعت بالسيارة ، فإذا هى تسابق الريح ، تاركة الرجل وقد تنحى عن طريقها خشية أن يصدم أو يداس ...

مرقت سيارتنا كالسهم فى طريق الجيزة ... ولكن الجميلة نظرت فى مرآة السيارة العاكسة ، وصاحت :

— إنه يتبعنا ...

وضاعفت سرعتها ، فنظرت خلفى فإذا سيارة الرجل منطلقة خلفنا حقيقة بسرعة زائدة ، فقلت للراكبين معى :

— ما الذى حصل ؟ ...

فارتبكت المرأة ، وتردد صديقى قليلا ، ثم قال :

— يظهر أننا ونحن ندور بالسيارة قد ارتكبنا مخالفة ! ...

فصدقت ، وسكت ، واجتازت السيارة الجيزة ، واندفعت فى طريق الهرم .. ونظرت الحسناء فى المرآة العاكسة وصاحت :

— إنه أخذ يقترب منا ...

فصاح بها صديقى :

— ضاعفى السرعة ... أسرعى ... أسرعى ... إذا لحق بنا فقد هلكنا ...

فأسرعت الجميلة ! ... ونظرتُ خلفى فإذا الرجل يسرع فى أثرنا هو الآخر ... فلم أتمالك ، وقلت :

— عجباً ! ... ماذا يريد منا هذا الرجل ؟ ... لو كنا صادمناه على الأقل أو ألحقنا به ضرراً ظاهراً ؛ لكان له بعض العذر ، ولكن مخالفة بسيطة يطاردنا من أجلها هذه المطاردة ، ويرغمنا على هذه السرعة الخطرة ، ويعكر علينا صفونا ويكدر علينا مزاجنا ... لعنة الله على هذا السخيف ! ...

فخيل إلىّ أن صديقى يقول فى نبرة مرتجفة :

— حقاً ... إنه سخيف .

وكنت قد أغرقت فى شرود وسهو ، ولم أفكر إلا فى هذه المجازفة بأرواحنا بهذا الإسراع المهلك بغير ضرورة ، وقلت فى نفسى : أيبلغ بنا الجبن إلى هذا الحد ؟ ... فلا يخطر فى بالنا أن نواجه الرجل ونناقشه بالحسنى ، فربما اقتنع بالمعروف ...

وصارحتهما بهذه الفكرة ، فابتسما ولم يحيرا جواباً ... وأمعنا فى الصمت والقلق ، كما أمعنت السيارة فى ذلك السباق المخيف ، وكانت سيارة الرجل المطارد فى تلك اللحظة قد أوشكت على اللحاق بنا ... فصاح صديقى بالحسناء :

— خير حل أن تعرجى بسرعة يساراً وتأخذى طريق العودة ،

وهو ما لم يفكر فى أننا سنفعله ، وبذلك يتعذر عليه أن يلحق بنا ...

وأدارت الجميلة عجلة القيادة فجأة ؛ فتحولت السيارة يساراً وما كادت تمرق فى طريق العودة ، حتى وجدنا سيارة الرجل المطارد ، قد عرجت هى الأخرى يساراً ، لا من الممر المعد لذلك بل مقتحمة الرصيف ... واعترضتنا وسدت علينا الطريق ... وعندئذ بادر صديقى صارخاً بالسائقة :

— اقتحمى الرصيف أنت أيضاً خلفه وامرقى سريعاً ...

وهنا نفد صبرى ، ففتحت باب السيارة قائلا :

— هذه تصرفات أطفال ... أنزلونى وأنا أتفاهم مع هذا الرجل ...

فصاحا بى ، وهما يجذبان كمى :

— تتفاهم ؟ ... مستحيل ... مستحيل ... الزم مكانك ... إنا سننطلق ... لا بد من الهرب ...

فأنقذت ذراعى منهما ونزلت وأنا أقول لهما :

— إذا أردتما العبث فأنا لست فى سن العبث، ولا يليق بى هذا الكر والفر .. اذهبا أنتما واتركانى أحادث الرجل فى أمر هذه المخالفة البسيطة ، وأسوى الموضوع معه باللطف واللين ...

وكان الرجل قد نزل من سيارته ، وأقبل يشتد نحوى ... فلما رأت السائقة الجميلة وصديقى ذلك ؛ لاذا بالفرار ... واخترقا بالسيارة الرصيف ، والرجل يشيعها ببصره ، حتى اختفت عن الأنظار ... فاستأنف سيره نحوى إلى أن بلغنى فابتدرنى قائلا :

ـــ وقعت فى يدى أخيراً يا مجرم ! ...

فنظرت إليه بعتاب . وقلت بتسامح وهدوء :

ـــ مجرم ؟ ... وأنا لست بسائق السيارة ولم أسق قط سيارة فى حياتى ... ولا أعرف كيف تسير ولا كيف تدار ! ...

ـــ طبعاً هى التى كانت تسوق وتقود ، وكنت أنت بجوارها تنظر فى عيونها السود ...

ـــ آه ... لا تذكرنى بعيونها ... إنى والله من بهرتى لم أدر ما لون عيونها !! ... أسود هى أم رمادية أم عسلية ... وإنى لمندهش لرجل مهذب مثلك ، كله ذوق ، ونظر كيف يتصرف هكذا مع فاتنة كهذه ... هبها يا سيدى خالفت وأخطأت ... ألا يحسن بك أنت أن تتساهل ؟ ...

ـــ أتساهل يا سافل ! ... من تحسبنى حتى أتساهل فى هذه الأمور ؟ ... ولكنى سأريك أن الذى أمامك هو رجل ....

وأخرج فى الحال من جيبه مسدساً صغيراً .... ما أن لمحته فى

يده حتى هرب دمى ، ولكنى تجلدت ، واعتصمت بالهدوء وتكلفت الابتسام ، وقلت ملاطفاً :

ـ اللهم عفوك ورضاك ... أتريد قتلى يا سيدى لمسألة بسيطة كهذه ؟ ...

ـ بسيطة ! . بسيطة يا وغد ؟ . تسمى هذه المسألة بسيطة ! ...

ـ أقصد ... وأنت الصادق ... أنها لا تحتاج إلى غضبك هذا كله ... إنها مما يقع فى كل يوم ... خصوصاً من سيدة جميلة كهذه يغتفر لها كل شىء ...

ـ يغتفر لها كل شىء ؛ إلا سوء سيرها ! ...

ـ سيرها والله كان بمنتهى الحذر ، لولا ظهورك أنت المفاجىء ولعل هذا هو الذى أوقعها فى الارتباك ...

ـ طبعاً ظهورى المفاجىء لا بد أن يربككما ويوقعكما فى الحرج والضيق ! ...

ـ أكثر من ذلك يا سيدى ، وأنت الصادق ، لقد حلت بيننا وبين المتعة بتلك النزهة اللطيفة ... ولو كنت تكرمت علينا وتفضلت فأغضيت عن الموضوع ومررت مر الكرام وتركتنا نواصل سيرنا ونزهتنا ومتعتنا ، لكنت ظفرت منا بألسنة تلهج

بشكرك ، والدعاء لك ، والثناء عليك ! ...

ـــ ما شاء الله ! ... إنى لم أر فى حياتى أصفق منك وجهاً ... إنى أقسم أن فى استطاعتى الآن أن أريق دمك برصاصة وأنا مرتاح الضمير ...

ولمعت عيناه بأشعة أرعبتنى ... فتوسلت إليه أن يبعد المسدس عنى ، وجعلت أستعطفه وأقول له :

ـــ مهلا يا سيدى ... مهلا ... هدئ أعصابك الثائرة ... مهما يكن من أمر ، فما ذنبى فى الموضوع ؟ ... ولماذا تحملنى أنا مسئولية الحادث ، وما أنا فى الواقع غير واسطة خير ... نزلت كى أتفاهم معك ، وأزيل من نفسك كل أثر سيء ...

ـــ عجباً ! ... وهل تصورت أنى أقبل أن تكون أنت واسطة خير ورسول صلح بينى وبينها ؟! ...

ـــ وما المانع ؟ ...

ـــ أنت الذى يصلح بينى وبين شريكتك ؟ ... وهل أرضى هذا الوضع ؟ ... وهل هذا معقول يا ... يا بارد ...

ـــ كنت أحسبه تصرفاً سليما ! ...

ـــ هذا تصرف فى منتهى الجرأة والوقاحة ! ...

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ! ... أعترف بأنى عجزت عن

إرضائك ... وفقد الأمل فى فهمك أو فهم ما تريد ، فاقتلنى إذا شئت ... ولكنى أرجو منك وأنا ألفظ الروح أن تفهمنى على الأقل : لماذا أنا مت ؟ ... لو أنى تسببت ، لا سمح الله ، فى خرق « فردة كوتش » لكان هذا سببا معقولا لقتلى ، ولكن أموت يا ناس من أجل مسألة تافهة ! ...

ــ تافهة !!؟ ... يا نذل ! ... فى أى عصر نعيش حتى نرى هذا التبجح الغريب ، والاستهانة بهذا الجرم الخطير ! ...

ــ بل فى أى عصر نعيش يا سيدى حتى نرى نفساً حرم الله قتلها نذهب فى مخالفة الحكم فيها لا يزيد عن ١٥ قرشاً ؟ ...

ــ مخالفة ؟ ... هذه جناية ...

ــ أؤكد لك أنها مخالفة ... إنى رجل أعرف القانون ...

ــ اخرس ... أنت رجل مستهتر ...

ــ وأنت رجل متشدد زيادة عن اللزوم ...

ــ يا للصفاقة ! ... ألا تريد منى أن أتشدد دفاعاً عن حقوقى الشرعية ! ...

ــ حقوقك يا سيدى محفوظة ... ولو كان حصل لك أو حصل لها أى ضرر ...

ــ ألم يحصل ضرر ؟ ... ألا تريد أيضاً أن ترى الضرر الذى

لحقنى ؟! ...

ــ لا أقصد ذلك يا سيدى ... وأنا معترف أن حكمى فى هذا لا يعتمد عليه ، وأنا مستعد لإجراء معاينة أو فحص بمعرفة خبير يكشف عليها ...

ــ يكشف عليها ! ... اخرس يا بذىء ...

ــ أنا والله لم أعد أدرى كيف أرضيك ؟ ...

ــ لا يرضينى شىء سوى قتلك والشرب من دمك ، وغسل عارى بهذا الدم النجس ! ...

ــ لماذا يا سيدى المحترم ؟ ... ماذا صنعت فى دنياى حتى أستحق هذا ؟ ...

ــ هذا هو الجزاء الوحيد لذلك الأثيم الذى يعتدى على أعراض الأسر ؟ ...

ــ أعراض الأسر ؟ ... وما دخل أعراض الأسر فيما نحن فيه ؟ ...

ــ وبماذا تصف علاقتك الشائنة بزوجتى ... ؟

ــ زوجتك ؟ . وهل حصل لى الشرف بمعرفة زوجتك ؟! ...

ــ ألا تعرفها ؟ ...

— ولم أرها فى حياتى ... وأقسم لك ..

— ومن عشيقتك إذن ؟ ...

— عشيقتى ؟ ... لا يا سيدى الفاضل ... لا تجرح شعورى ... أنا رجل مستقيم لا صلة لى بامرأة ، ولم أعرف امرأة ...

— والتى كانت إلى جوارك فى السيارة ... أهى امرأة ... أم ؟ ...

ـ آه ... لك حق ... ولكن القصة على وجهها الصحيح هى أنى كنت أسير فى طريقى إلى منزلى ، كما يحدث لكل إنسان ... وإذا سيارة تقف على مقربة منى ... فأصعد ... وإذا بجوارى امرأة ...

— كما يحدث فى كل « أتوبيس » ! ...

— بالضبط ...

— وهل تعرف هذه المرأة ؟ ...

— أبداً ...

— والتقطتك هكذا من الطريق بدون سابق معرفة ؟ ...

— هذا والله الذى حصل ...

— ذلك شىء مشرف جداً لهذه المرأة ... أن تصبح هكذا

كالسيارة العامة . تلم الشوارع من تعرف ومن لا تعرف ...

ــ لا تظلمها يا سيدى ... الموضوع له أصل ...

وهممت أن أقص عليه حقيقة ما حدث بالصراحة والصدق والتفصيل ، ولكن توقفت فى الحال ، وأدركت أن ذلك مستحيل ... إذ لا بد دون ذلك من أن أذكر له وجود صديقى الذى دعانى ، والزوج من غير شك لا يلمحه ؛ لأن هذا الصديق كان فى المقعد الخلفي من السيارة المغلقة ... ولم يكن التفات الزوج موجهاً إلا للجالس بجوار زوجته فى مقعد القيادة ، وهو أنا ولا فخر ... فإفشاء أمر صديقي المجهول ، لن يغير من الموقف كثيراً ... فالزوجة متهمة فى الحالين ... ومن يدرينى أن الزوج سيصدقنى إذا حاولت نقل عبء الجريمة عن كاهلى إلى كاهل آخر لم يره ، وألاّ أخرج من المحاولة إلا بخسة النذالة والجبن والاغتياب والنميمة ... ثم إنى قد « لبخت » فى أول حديثي ، ونوهت بعيون « الزوجة » وفتنتها وموقع سحرها من نفسى ، ومتعة النزهة معها التى عكر صفوها الزوج بظهوره ... أنا إذن متلبس بالتهمة لآذانى بأقوالى وأفعالى ... ولا توجد قوة ولا حجة فى مقدورها تبرئتنى ... ولا فائدة فى إنكار ولا جدوى فى دفاع ، فلأسلم الأمر لله ... وليعتقد الرجل ما يعتقد ، وليكن ما يكون ...

ورأى الزوج صمتى وإطراقى ، فاستحثّنى قائلا :

ـــ تكلم ... ماذا فى استطاعتك أن تقول ؟ ... بماذا تعلل وجودك إلى جوار زوجتى فى السيارة ؟ ... وبماذا تبرر هروبكما منى ، وأنا أتبعكما من مصر إلى الجيزة ، إلى الهرم ؟ ...

فلم أجد فى رأسى رداً نافعاً ... فلا الحقيقة تصلح أن تقال ، ولا الصدق بمنج فى مثل هذه الحال ، فاكتفيت بأن قلت :

ـــ عقدة العقد يا سيدى هى فى إيجاد هذا التعليل المقنع ...

ـــ اعترف إذن ... وما دمنا وصلنا إلى هذه النتيجة ، فلا بد من تصفية الموقف الآن بكل عقل وحكمة وهدوء ... كما يليق برجلين مهذبين ... أجبنى أولا بكل صراحة ... أنت تحبها طبعاً ؟ ...

فلم أر داعياً للاهتمام بالجواب الصحيح ، فالمسألة بلغت حداً أصبح فيه الكذب مساوياً للصدق ... وربما كانت الأكاذيب فى هذا الظرف أقرب إلى التصديق من الحقيقة ، وما دمنا لم نعد نستطيع قول الحقيقة فلنجرب الكذب ، فقد ينجينا من هذا الحرج الذى لا مخرج منه ... فقلت له :

ـــ تسألنى هل أحبها ؟ ... أحبها بجنون ، ولا أنام الليالى ...

ـــ وهى تحبك طبعاً ؟ ...

— حب العبادة ... ولا تنام الليل ...

فكظم غيظه ، وتكلف الهدوء ، وقال :

— ومنذ متى يعرف أحدكما الآخر ؟ ...

— منذ نصف ساعة ...

فحملق فى وجهى وقال :

— ما هذا الخلط ؟ ... أهذا معقول ؟ ... أجبنى بصراحة قلت لك ! ..

— إنى أجيبك بما أرى ... فاستخرج أنت الصحيح من الزائف ...

— إجابتك الأخيرة ظاهرة الكذب ... فقل الحقيقة من فضلك ...

— تلك هى الكذبة الوحيدة فى كل ما أجبت به ... اغفرها لى ...

— مما لا شكٍ فيه أن معرفتكما لا بد أن تكون قديمة ...

— فلأقل الصدق إذن : حقاً إننا تقابلنا ، وتعرفنا منذ عام وكانت العلاقات بيننا دائماً طول هذه المدة على ما يرام ...

— عظيم جداً ... اسمع الآن ما استقر عليه عزمى : إنى سأطلقها ، وعليك أنت أن تتزوجها ... ولا تأمل أن يكون

للمسألة حل آخر غير هذا ...

فبلعت ريقى ، وكتمت ما بى ، وتكلفت الابتسام ، وأظهرت الرضا ... ذلك أن المهم فيما أنا فيه هو الخروج من اللحظة الحاضرة ، والخلاص من المأزق الحالى ، وإلى أن أعود إلى دارى قد يأتى الله بالفرج ... وإلى أن أمثل بين يدى المأذون لعقد ذلك الزواج ، أكون قد قابلت صديقى وصفعته وأقنعته بأن يحل محلى وأن يخلى سبيلى ...

واتفقنا على ذلك أنا والزوج ... وتصافحنا وأركبنى سيارته ، وأوصلنى إلى بيتى ، الذى لم يقدر لى أن أصل إليه فى سيارة زوجته ... وانتظرت ... وهأنذا أنتظر إلى اليوم ... فلا الزوج قد ظهر ، ولا الزوجة ، ولا الصديق ... ولا طلاق حصل ولا زواج طلبونى إليه ، أين اختفى عنى أبطال تلك القصة ؟ ... وماذا تم فى أمرهم ؟ ... وما علاقة بعضهم ببعض الآن ؟ ... أسرار لا أدرى عنها شيئاً ... ولا أريد أن أدرى ... كل ما أعرف هو أنى صرت أجفل وأرتعد من كل سيارة تقف بقربى وتقودها امرأة ...

فى نخب « العصابة » ! ..

اهتزت الدنيا لخبر أذاعه البرق فى كل مكان :

علماء الذرة قد اختفوا فجأة من أمريكا ، ولا يدرى أحد مقرهم ولا مصيرهم ...

وعلقت الصحف على ذلك الاختفاء الغريب بقولها : إنه ولا ريب اختطاف قامت به جماعة من الجواسيس لحساب بعض الدول ، ولكن الحقيقة التى وقعت لا يمكن أن تخطر على بال صحافة ولا خيال صحفيين ! ... فقد حدث الأمر على هذا الوضع :

رجل مستقر فى بهوه الفاخر قرب المدفأة ، قرأ فى جرائد المساء هذا الخبر :

«صرح رئيس اتحاد العلماء الذريين الأمريكى بأن الأبحاث الجديدة فى شئون الذرة ستتيح بعد عام صنع قنبلة تفوق فى قوة التدمير القنبلتين اللتين ألقيتا على هيروشيما وناجازاكى بمقدار ألف مرة ... » ...

فألقى الرجل بالصحيفة ... ونهض وقد دبر فى نفسه أمراً ...

هذا الرجل لم يكن سوى : « آل كابونى » رئيس العصابة الخطير وصاحب الملايين الشهير ! ...

كان قد اعتزل العمل الحرام ، وقد حذره الأطباء من داء القلب ، وشعر بدنو الأجل ... ولكن موهبة التنظيم والتدبير لم تزل منها فى عقله بقية ... ونفوذه على مهرة القتلة والمهربين وحذاق اللصوص والخطافين لم يزل له قوة ... فبذل من المال والحيلة ما لا يقف فى سبيلهما شىء ... حتى ظفر بخطف اتحاد العلماء الذريين الأمريكيين برئيسهم ... ووضعهم فى قصره الفخم فى « فلوريدا » ... ودعاهم إلى مائدته ... وقدم إليهم أطيب الطعام وأفخم الشراب ... ثم قام فى آخر العشاء يرفع كأسه قائلا :

ــ فى نخب « العصابة » ... عفواً أقصد « الاتحاد » ! ...

ونظر إليه رئيس اتحاد العلماء قلقاً ، وهو لا يدرى أكان هذا الخطأ منه مقصوداً ؟! ... أترى هذا الرجل يسخر منهم أم يحتفى بهم ؟! ...

ولم يمهلهم « آل كابونى » ، فقد مضى يقول :

ــ لقد دعوتكم إلى قصرى لأكرمكم ... ومن أحق منكم

اليوم بالتكريم منى ؟! ... أرجو قبل كل شيء أن تغفروا الطريقة التى أحضرتكم بها... لقد خشيت أن أرسل إليكم بطاقات دعوة ، وأكتفى بها ، فلا تعنوا بتشريفى ترفعاً ، أو استغراباً ، أو رهبة ، أو أنفة ... فأنتم ولا شك تعتقدون ألا صلة تربط مثلى بمثلكم ، ولا تشابه بين مهنتى ومهنتكم ، ولا تجانس بين مشاعرى ومشاعركم ... ربما كان هذا صحيحاً لأول وهلة ... وإنى لست من الوقاحة حتى أزعم لنفسى أن أقف بين جماعة من الأبطال ... استطاعوا فى طرفة عين أن يقتلوا مئات الآلاف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ... ما من أحد يكبر عملكم مثل ما أكبره ... وما من أحد يقدر جهدكم مثل ما أقدره ... كلما تذكرت أن كل مجدى قائم على عدد من الرجال — والرجال فقط — قتلتهم فى شيكاغو أنا وأعوانى ... عدد لا يزيد على خمسمائة رجل ... وأنا كل شهرتى قائمة على تلك المجزرة التى أبدت فيها كل خصومى عام ١٩٢٩ فى جراج « يوم سانت فالنتين » ! ... لقد كان أعوانى كثيرين ... أكثر منكم عدداً ... ولكننا لم نستطع أن نفعل أكثر من ذلك ... أما أنتم فقد استطعتم أن تبيدوا خمسين ألف نسمة دفعة واحدة ... اعذرونا ... لقد كانت وسائلنا أولية محدودة ...

كل ما فى أيدينا كانت المسدسات والمترليوزات ، وهل يخطر فى بالنا أن المستقبل سيكشف عن رجال مثلكم ، فى أيديهم هذه القدرة ، وفى قلوبهم هذه الجرأة ؟ ... إنى أخاطبكم وفى نفسى شعور من الخجل والمذلة والضآلة .. فكل عملنا بالقياس إليكم عبث صبية ولعب صغار ... وقد منحونى من أجله لقب « عدو الشعب رقم واحد » ولست أدرى ، ما هو اللقب الذى يليق برئيس هذه الجماعة ؟! ... أعنى الاتحاد ... أحمد الله أن زماننا قد فات ؛ وبطولتنا المزعومة قد طويت فى بطون الصحف القديمة ... أما اليوم فهو يومكم ... وهذا الزمان هو زمانكم ... ولكل زمن رجاله ! ... فاسمحوا لى بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن جماعتى أن أحيى جماعتكم ، وأن أرفع كأسى فى نخب مجدكم ... ليحيى الرجال الجدد ! ... لتحيى العصابة الجديدة أعنى الاتحاد الجديد ...

وشرب « آل كابونى » قدحه فى جرعة واحدة ... وجلس بأدب وتواضع ... وقد أرخى أهدابه ، ونظر إلى الأرض ؛ فلم يبصر رؤوس ضيوفه المطرقة ، ولا عرقهم المتفصد من الجباه ، ولا خجلهم المتصبب قانياً من الوجوه ...

وخيم سكون قطعه آخر الأمر رئيس الاتحاد بنهوضه ... فنهض

معه كل الأعضاء ... وانتهت الوليمة صامتة كأنها جنازة ...

وانصرف العلماء إلى منازلهم واجمين ، لا يجرؤ أحدهم على النظر إلى الآخر ... واقترح الرئيس فى النهاية أن يبقى أمر هذه الوليمة سراً ...

ولم ينم « آل كابونى » فى تلك الليلة ... فقد كان تأثره شديداً ، لقد أيقن أن آخرته قد دنت ، وأن صفحة حياته قد طويت ... وأنه قد ختمها كما ينبغى لها من الروعة ، وأنه أسلم الصولجان ، ولفظ فى خلفائه خطبة الوداع ، على أحسن ما ينبغى وأجمل ما يشتهى ... فحق له الرقاد الأخير ! ...

وأصابته آخر الليل نوبة قلبية ... وأسلم الروح ...

وظهرت الصحف فى اليوم التالى ، وكأنه القدر هو الآخر أراد أن يتكلم على طريقته ، أو يمزح أو يجد ... لا أحد يدرى مراميه ! ...

كل ما حدث هو أن صورة « آل كابونى » نشرت مصادفة بجوار صورة « رئيس الاتحاد » ! ...

الأول بمناسبة وفاته ....

والثانى بمناسبة عودته ، بعد اختفائه هو وأعوانه ، من « مهمة سرية فنية » !...

أسعد زوجين ! ..

جلس يصغى بانتباه إلى جهاز الراديو وقد تصاعد منه صوت ناعم بديع :

«يوضع اللحم فى البرام... ثم يغطى بالبطاطس.. وتفرى بصلة فرياً ناعماً جداً ... وتحمر في السمن حتى يحمر لونهـا ، فيضاف الدقيق ويقلب حتى يصبح ذا لون بنى فاتح ... ثم تزاح الصلصة من على النار ، وتضاف مع البقدونس والملح والفلفل والبهار ... »

إلى آخر ما جاء فى برنامج التدبير المنزلى ذلك اليوم ... وكان ذلك المستمع الكريم يسمع بقلب يخفق هياماً ، وفؤاد يطير شوقاً ، ولعاب يسيل حناناً ... وبرح به الغرام ... ، ... والأذن تعشق قبل العين أحياناً ... فلم يطق صبراً وقام إلى أهله يعلن إليهم :

ــ لا بد لى من الزواج بهذه المرأة ...

فسألوه :

ــ هل تعرفها ؟ ...

— لا أعرف إلا إذاعتها اللذيذة فى الراديو ... إنها تهز قلبى ...

وكان صاحبنا هذا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة ، فإذا سأله طبيب يوماً : أين معدتك ؟ ... أشار إلى قلبه ... وإذا سأله : أين قلبك ؟ ... أشار إلى معدته ... وكان لا بد للمرأة التى تريد استلاب قلبه من أن تستولى على المعدة أولا ... فإذا ملكتها ملكت كل شىء ...

وتمت مراسم القران ... وجاءت ليلة الزفاف ... وأحيت الحفلة إحدى المطربات جعلت تغنى طول الليل : إحنا الاتنين ، والعين فى العين ، أهنا قلبين واسعد عريسين ... » والعريس يتململ فى مقعده ضجراً من هذا الغناء ، ويود الكلام فى موضوع أعز عليه وألذ من هذا الهراء... وضاق صدره آخر الأمر ولم يحتمل ... فانحنى على عروسه وقال لها باهتمام :

ـ حدثينى ... بعد أن وضعت اللحم فى البرام ... لقد قلت إنه يجب أن تفرى البصلة فرياً ناعماً جداً وتحمر فى السمن ... ما قولك لو أضفنا مع البصل شيئاً من الثوم والكزبرة والكمون ؟ ...

فنظرت إليه العروس طويلا ، ولم تجب ...

ومرت الأيام الأولى من أيام الزوجية ... والعريس يتقلب على

الشوق ويتقلى ... منتظراً اليوم الذى تدخل فيه زوجته المطبخ ، وتلبس فوطتها ، وتشمر عن ساعديها ، تطبخ له تلك الأصناف الشهية التى طالما شنفت أسماعه بوصفهااللذيذ فى الراديو ...

ودخلت الزوجة المطبخ أخيراً ، وزوجها يباركها ويسأل الله أن يحميها ... وعاد من عمله فى الظهر وهو يتلمظ ويقول :

« صلوات الله على تلك التى ستسعدنى بالأكلة المثالية ، والطبخة النموذجية ... »

وانتظر ساعة ... ثم ساعة ... ثم كاد العصر يؤذن ... فخرجت الزوجة النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان معاً من وجهها وهى ملبوخة من رأسها إلى قدمها ... وقالت له :

ـــ لا مؤاخذة ! ... أنا استسهلت خوفاً من التأخير ، عملت لك طبق بيض مقلى ...

فأخفى الرجل حسرته وكتم غضبه ... ومد يده صامتاً إلى طبق البيض المقلى .. كما قالت ... فوجد سمنه قد تبخر وبياضه قد احترق ، وصفاره قد تحجر ...

ودقت الساعة الرابعة ... فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج فارتدتها ، وانطلقت مسرعة كأنها على موعد هام ...

وما وافت الخامسة والربع ، حتى سمع الزوج المسكين صوت امرأته الحنون يتصاعد من الراديو ، ويذيع على

المستمعين المصدقين :

— « يوضع اللحم فى البرام ... ثم يغطى بالبطاطس ... وتفرى بصلة فرياً ناعماً جداً وتحمر فى السمن ... إلخ » ...

وأطرق الزوج ملياً ... ولم يعد يدرى ماذا يفعل :

هل يضحك ؟! ... هل يبكى ؟! ...

اعترف القاتل ! ..

كان موقف ذلك المتهم عجباً أمام قضاته ! ... ذلك الشاب النحيل الجسم، الشاحب الوجه ، الهادئ الطبع ، الباسم الثغر ... أهو قاتل فى قفص اتهام ؟ ... أم شاعر فى خميلة ريحان ؟! ...

كان يشرف من مكانه على قاعة الجلسة ، كأنه مؤلف يشرف من مقصورته على رواية من تأليفه ... كل شىء يجرى أمامه فى المجرى الذى تخيله ودبره ... وكل شىء سيحدث طبقاً لما ارتضاه وتوقعه ... لم تكن فى نظراته حيرة المتطلع إلى الغيب ، ولم يكن فى قلبه قلق المترقب لصوت القدر ... كأنما يعرف أنه هو الذى نسج غيبه ، ووضع قدره ...

كانت المحكمة غاصة بالحضور ، وسياج الشرطة يدفع عن الأبواب أمواج الجماهير ... فتلك جريمة اهتمت لها البلاد واهتزت لها الدوائر السياسية ...

وقف النائب العام يطلب رأس المتهم قائلا :

« مهمتى هينة يا حضرات القضاة ! ... فالمتهم الذى بين أيديكم معترف بجريمته ، وقد دبرها بدقة ونفذها بإحكام ... فقد قتل عمداً مع سبق الإصرار والترصد ... المجنى عليه ، ذلك القطب السياسى المشهور ، بأن أطلق عليه رصاص مسدسه ... وهو فى الطائرة بين الإسكندرية والقاهرة فأصابه فى صدره الإصابة الموضحة فى تقرير الطبيب الشرعى ، والمؤدية ...إلى وفاته وتتلخص وقائع الجريمة كما شهد بها ضابط اللاسلكى فى الطائرة ، فى أنه فى ذلك اليوم لم يكن بها غير راكبين : هما المجنى عليه والمتهم ... وقد لاحظ ضابط اللاسلكى كما لاحظ قائد الطائرة بعض آثار الإضطراب على المتهم وهو يهم بركوبها ، ولكنهما لم يعلقا على هذه الملاحظة اهتماماً ، إلى أن حلقت الطائرة وطارت حتى كادت تقترب من القاهرة ، وإذا بضابط اللاسلكى يحس حركة خلفه ... وكان الباب الموصل بين مكان الركاب ومكان القيادة مفتوحاً ... فالتفت ... فأبصر المجنى عليه يخرج من مقعده والجانى أمامه والمسدس فى يده فهرع إليه وانتزع منه آلة الجريمة ، ووضعه تحت الحفظ ، وقد سئل الجانى فاعترف بالقتل العمد ... وقد ظهر من التحقيق أن

الجانى — وهو مدرس فى إحدى المدارس الحرة بالإسكندرية — كان كثير التردد على القاهرة ... وأنه — كما شهد ناظر مدرسته — فى حالة مالية مرتبكة ، وأنه كثير العزلة ، محاط بالغموض ... وشهد زملاؤه أنه يكثر من الكتابة خفية فى أوقات فراغه إلى جهة مجهولة ... وطالما رأوا على وجهه علامات الاهتمام والتفكير إلى حد الانفعال ، وهو يتلقى أو يقرأ خطابات كثيرة ترد إليه لا يعلمون مصدرها ... وكانوا يشعرون كأن المتهم غريب بينهم ... فهو قليل الكلام معهم ، بعيد عن مجالس مرحهم ولهوهم ... لم يروه مرة ضاحكا ولا عابثاً ... كان دائم التفكير فى أمر لا يدركون كنهه ... وكان يبدو عليه أنه يتحاشاهم ويتجنب عشرتهم ... وفى يوم الحادث شهد زملاؤه المدرسون أنه تلقى برقية ؛ فتغير وجهه بعد تلاوتها ، وسأل عن الساعة ... وقال وهو مسرع مضطرب : إنه ذاهب إلى المطار ليركب الطائرة إلى القاهرة ... وقد أبصروه فى تلك اللحظة يخرج مسدساً من ثيابه ، فحصه ثم رده إلى جيبه ... كل هذه الوقائع أثبتها التحقيق وأقرها المتهم ... نعم ... المتهم معترف بما اقترفت يداه ... ولكن السؤال الحائر على كل الشفاه : هل له شركاء ؟ ... ولم يستطع التحقيق ، للأسف ،

أن ينتزع اسماً واحداً من فم هذا المجرم ... كان فى مراحل التحقيق على هذا الهدوء العجيب الذى ترون ... ينكر أن لأحد غيره يداً فيما وقع ... لم يستطع الاستجواب الدقيق ، ولا القرينة المحرجة ، ولا الحيلة البارعة ، ولا الحجة القارعة ، أن تستثيره وتستحثه وتخرجه من هذا الثبات وهذه الابتسامة ! ... فى حياتى القضائية الطويلة لم أصادف مجرماً بهذه القوة ولا بهذا الدهاء ... ما من شيء استطاع أن يهز هذا الشاب الباسم ليتهار ويفرغ ما فى جوفه ... جبل من الجليد محاط بالضباب ... بل حصن من الهدوء الصوفى يحمى ولا ريب خلفه جماعة من الأعوان وجمعيات من السفاكين والإرهابيين ... إن النهج الذى سار عليه القاتل قد أوقع المحققين فى حيرة ... إنه لم يشأ أن يخوض حتى فى الغرض السياسى الذى من أجله ارتكب الجريمة ... كان دائما ، كما تبصرونه الآن بعيداً عن كل زهو أو فخر ... لا تخدعه ألفاظ البطولة ، ولا يحاول أن يلبس عمله أردية براقة من عبارات الوطنية أو القومية ، ولا يريد أن يوجد لفعلته تبريراً أو تفسيراً !...

كل ذلك من فرط حرصه، حتى لا يجعل تحت قدميه مزالق...

أو يحفر بلسانه سراديب تنساب من بين أقواله إلى حصن أسراره ... كانت كلماته الوحيدة :

ــ « لقد قتلت متعمداً ، واستحق رأسي المشنقة ، فعجلوا بها ، ولا تضيعوا وقتي ووقتكم فيما لا طائل وراءه ! ...

هذا مجرم أدى مهمته ، ويريد أن يمحي سريعاً ويباد ، كما تباد وثيقة تحوى أمراً يراد إخفاؤه عن العيون ! ... إن إثم هذا الرجل لا ينتهى بتنفيذ حكم الإعدام فيه .... إنه يموت ليمكن لجرائم الاغتيال من أن تستمر بعده ... إذا فتحتم جمجمة هذا الإنسان وجدتم سلسلة من الجرائم مقرونة بأسماء الضحايا الذين يعلم هو متى تدنو ساعتهم ، ويعرف هو اليد التى ستبطش بهم ! ...

يا حضرات القضاة ... أمامكم رجل خطر ! ... لا يغرنكم هذا القناع الحريرى من الوداعة والدماثة ... إنه يخفى تحته نفساً خبيثة لمجرم من أشد المجرمين فتكا ... وسأشرح لكم ما امتلأت به ملفاتي وصفحاتي من تفصيلات عن نفسية هذا المجرم ودوافعه السياسية ! ...

وسكت النائب العام عن المرافعة لحظة ، ليتناول جرعة ماء من كوب فوق منصته بحركة متسقة فيها جلال وثقة ... وجعل

المتهم يرمقه بنظرات امتزجت فيها الرقة بالسخرية ... ومضى النائب العام فى الكلام طول ذلك اليوم ، والكل مصغ إليه ، بآذان مرهفة وعيون مشدوهة ، إلا المتهم ... فقد كان النعاس قد دهمه منذ ساعات ، فنام فى مقعده حتى انتهاء الجلسة ، فأيقظه الحراس ليقودوه إلى سجنه ... ثم عادوا به فى اليوم التالى ، ليصغى إلى بقية كلام النائب العام ، فمرافعته لم تنته بعد ، ولا يدرى أحد متى تنتهى ...

طفق المتهم يرقب يد النائب تطوى من ملفاته الصفحة بعد الصفحة ، وهو يتمنى أن يطوى مع كل منها يوم من أيامه ، فقد بدأ الضيق يجثم على صدره ، والضجر يأكل من صبره ... أكثر مما ينبغى ... ما شأنه بكل هذا الذى يسمع ؟ ... إنه لم يعد من سكان هذه الأرض ... إنه فى طريقه إلى العالم الآخر ... مثله مثل راكب قطار قطع صلته ببلده ويمم شطر بلد بعيد ... فإذا أناس يستوقفونه ليسمعوه كلاماً طويلا فى أشياء لا تهمه ولا تعنيه ... ولن تقف البلية عند حد هذا النائب ، فها هو ذا محاميه عاكف هو الآخر على ملفات أضخم من ملفات الاتهام ، وسيطلب هو الآخر أن يستغرق دفاعه الأيام ... وهو لم يوكل عنه محامياً ، ولم يرد فى قضيته دفاعاً ... ولكنها

المحكمة ندبت له هذا المحامى ، لأن إجراءات المحاكمة تقتضى أن يكون له من يدافع عنه ... رضى أو كره ... إنها « العدالة » ...

هكذا أنفق المتهم الوقت بين إغفاء ويقظة كالإغفاء حتى انتبه فى فترة صمت لمح فيها النائب قد سكب ليرشف جرعة من الكوب ويمسح بمنديله العرق المتفصد من الجبين ، فلم يتمالك ... ونهض يخاطب هيئة المحكمة برفق وأدب ، وسخرية واستعطاف ... استطاع أن يخلطها كلها ويضعها فى نبرة أرغمت الجميع على الإصغاء :

« يا حضرات القضاة ... ما قصدت أن أقاطع مرافعة النائب العام ... فأنا من أشد المعجبين به ، المقدرين له ، المصغين بانتباه ومتعة إلى بلاغته ، وإنى لمدرك أن الظرف يستوجب منه هذا الإسهاب ... فالمجنى عليه شخصية كبيرة ... والجمهور مهتم بالقضية ... والمجتمع يتحدث فى بواعثها ومراميها ... فلا بد أن يقف النائب العام بشخصه المحترم يترافع يوماً على الأقل أو يومين ... بمبرر أو غير مبرر ... وأن يجهد نفسه حتى يجف حلقه ويسيل عرقه ، ليكون جديراً بثناء الناس فى المجالس على همته البالغة ومرافعته الرائعة ... وإنى لمدرك أيضاً أن تفسح المحكمة صدرها ... وأن تطيل إنصاتها ، وأن تمد فى الحبال ... وأن تعنى

بكل ما يقال ؛ لتظفر بمدح الناس لعدالتها ونزاهتها ؛ بل إنى لأفهم حتى هذا المحامى المنتدب للدفاع عنى ، وهو غارق الآن فى ورقه لأذنيه كما ترون يهيئ كلاماً طويلا لن يقدم عندكم ولن يؤخر ... ولن يبدل من مصيرى ولن يغير ؛ ولكنه يأمل من ورائه نجاحا عند الناس ومجداً ... أنتم جميعاً خدام « العدالة » .... ما فى ذلك ريب عندى ... ولستم موضع لوم إذا جعلتم « مولاتكم » على رأس موكب فخم يتهادى ، وسرتم فى ركابها صاخبين مختالين بين أنظار الحشد ، متمهلين فى كل خطوة أو متوقفين عند هتاف الجموع ... كل رجائى منكم أن تسرعوا بالموكب قليلا ... ولا بأس عندى بعد ذلك أن تبنوا لأنفسكم صيتاً على أنفاس رجل يموت ... » ! ...

وجلس بهدوء كما نهض ... وخيم صمت بارد على القاعة ... قطعه رئيس المحكمة أخيراً بالتفاتة منه إلى النائب العام يدعوه إلى استئناف مرافعته ، دون أن يجرؤ أحد على إبداء تعليق ...

واستأنف النائب اتهامه حتى أتمه ، وختمه بطلب الحكم على المتهم بالإعدام ، طبقاً لنصوص القانون ...

واتخذ مكانه ، وقال رئيس المحكمة : الدفاع ....

فوقف المحامى وخلع منظاره ووضعه فوق أوراقه وقال :

ـــ « يا حضرات القضاة ! ... إذا كانت مهمة النائب العام هينة كما قال ، فإن مهمتى أنا عسيرة ، لا لأن هدفى إنقاذ رأس قاتل معترف بالجرم ؛ بل لأن هذا المتهم ـــ لأول مرة على ما أعتقد فى تاريخ الدفاع ـــ يقف من محاميه موقف العدو ... نعم ... هذا المتهم هو وحده عدوى فى القضية ... وهو وحده الذى أخشاه ويخشانى ، ويروغ منى وأروغ منه ، ويصمت عنى وأصمت عنه ... لقد شكا النائب العام من فم المتهم المغلق ، وقد اعترف له ، فمن بالشكوى أحق وأولى ؟ ... وأنا لم أظفر من هذا الفم بغير قوله ساخراً :

ـــ « إذا كان لا بد لك من واجب تؤديه فى المحكمة فاقرأ على روحى الفاتحة بصوت مرتفع ! ... »

هذا متهم يريد أن يموت ... فكان من الطبيعى أن يتخذ من النائب العام صديقاً ، ومن المحامى خصما ... ولست أدرى ما الذى جعلنى أصر على منازلته ، وأمضى خفية عنه أبحث ، وأنقب حتى أهتدى إلى أشياء ستثير حنقه علىّ وغيظه منى ؟ ... ربما كان الباعث لى هو طلب المجد الذى تحدث عنه ، وتلك الرغبة فى الصيت عند الجمهور ؛ فليكن ... لا أحاول الزعم بأن رأس المتهم يهمنى شخصياً ... ولكن إنقاذه سليما على الرغم منه مسألة

تعنيني ...

يا حضرات القضاة ... لن تسمعوا منى دفاعاً عن المتهم ، ولكن ستسمعون قصة ... إليكم الوقائع مجردة ، كما تتبعتها ، بلا تعليق ولا تنميق ...

من سنوات قليلة خلت كان المتهم طالباً فى كلية الآداب ... وعارفوه فى ذلك الحين يصورونه لنا فى هيئة شاب مجدّ ، دمث الأخلاق ، يؤثر العزلة ويميل إلى الشعر ... ولم يكن صاخباً ولا عابثاً ولا مرحاً ... فسلخ أعوامه الأولى دون أن يثير التفات أحد ... حتى كانت السنة الثالثة ... بدأ قليل من إخوانه يشعر بنوع من الزمالة تتوثق بينه وبين طالبة معه فى عين الفصل ... واستمرت هذه الصلة على نحو واضح فى السنة النهائية ، على الرغم من جهود الفتى والفتاة فى إخفائها ... لقد كانا من طبيعة واحدة ... متحفظة مغلقة ... ولكن الرباط الداخلى بينهما بلغ من القوة والحرارة حد الإشعاع ... كان مجرد وجودهما معاً يشع معنى ن معانى الإخلاص والتفانى ، يثير فى الملاحظ لهما رجفة ودهشة ... ولقد ظهر فيما بعد أن حبهما الصامت بدأت جذوره فى مطلع السنة الأولى يوم تلاقيا فى الدراسة أول مرة ... ولكنه قطع أكثر من عامين ينمو فى الخفاء حتى أينعت زهوره ،

وفضحت فيهما إرادة الكتمان ... وكان بينهما عهد وهدف ... أن ينجحا ويفوزا معاً بإجازة الآداب ، فيخطبها الفتى إلى أهلها ... حتى يجد عملا يكفل الرزق فيتزوجها ... واقترب موعد الامتحان النهائى ، فكد الفتى وكدت الفتاة ، وبلغ بهما الكد والجهد مبلغا أنساهما الجسد وقوة احتماله ... لقد كان الحب يلهب بسوطه هذين الجوادين ؛ ليركضا إلى الغاية ! ... وبلغ الجوادان الهدف الأول واجتازا الامتحان ؛ ولكن أحد الجوادين سقط ... سقط مريضاً بذات الرئة ... كانت هى الفتاة ...

ومن هنا تبدأ المأساة ... فقد ربط المرض بينهما بحبال ليست من صنع البشر ...

وقد أسرع فخطبها إلى أهلها ... ولكن كفاحه فى سبيل شفائها أمر يحير العقول ...

كانت أسرتها رقيقة الحال ... وكذلك أسرته ! ... فصنع المستحيل حتى عثر على وظيفة مدرس فى تلك المدرسة الحرة فى الإسكندرية ... وجاهد جهاد الأبطال حتى تمكن من إدخال خطيبته مصحة « حلوان » ... وأوصى الأطباء والممرضين ألا يدخروا وسعاً فى العناية بالمريضة العزيزة ... فهو على استعداد أن يدفع النفقات ، ولو من دمه ... وبذل دمه فعلا وعقله وقوته

فى إعطاء دروس خصوصية فوق عمله المرهق بالمدرسة ، حتى يجمع ما يدفع به ثمن التمريض والعلاج ، وكان لا بد له أن يراها فى كل أسبوع مرة ، ليشجعها ويعينها على احتمال أعباء المرض ... فكثرت أسفاره إلى القاهرة ... ولكن موارده على الرغم من جهوده شحيحة ؛ فلجأ إلى الاقتراض من إدارة المدرسة ثم من زملائه المدرسين ... ثم من المرابين ... لقد صدق النائب العام وهو يورد شهادة ناظر المدرسة بما وقع فيه المتهم من ارتباك مالى.لو أن الروح التى فى الجسد ترهن فى السوق أو تباع ؛ لما تردد هذا الشاب فى رهن روحه أو بيعها لينقذ بثمنها حياة من أحب ... استمعوا إلى خطاب من خطاباته إليها :

« لو استطعت أن أشترى كل نسمة تتنفسينها بسنوات من عمرى ... ما أعجز الطب ياعزيزتى ! ... لماذا لا تتقاسميننى رئتى ؟ ... لو كان فى مقدورى أن أتنفس لك ؟ ... تجلدى أيتها العزيزة من أجلى ... فالهواء الذى يحيينى هو الذى يحمل رائحة وجودك ... يجب أن تعيشى لأعيش ! ...»

وكانت هى بالطبع تجيبه ... ولكننى لم أعثر على خطاباتها إليه ... لأنه يخفيها على كما ذكرت ... فكل ما عندى خطاباته هو إليها ، وقد أمكننى الحصول عليها ... استمعوا أيضاً إلى هذا

الخطاب منه رداً على رسالة منها :

« تعنفيننى على فكرة اللحاق بك ساعة تتركين هذا العالم الأرضى ؟ ... لكأنك تعنفين رجلا مات مختنقاً إذا فقد هواءه ! ... فيم المقام على الأرض بعدك ؟ ... وكيف أستطيع ... ثقى يا عزيزتى أن السماء قد ربطت روحك بروحى ... وأنك لحظة تصعدين أصعد ! ... » .

وتجرى الرسائل هذا المجرى ، وفى ملفّى منها رزمة ضخمة ... فقد كان — كما ذكر الشهود — يكثر الكتابة فى أوقات فراغه ، ويلمحون على وجهه علامات الاهتمام وأمارات الانفعال ... لقد كان يكتب إليها خطاباً كل يوم ...

وساءت حالها أخيراً ... ودنا منها الموت ... وكان هو فى عمله بالإسكندرية ... فلما دخلت فى الاحتضار ... ورددت اسمه على شفتيها ... بعث أهلها إليه ببرقية يسألونه الإسراع بالحضور ، فهى فى النفس الأخير ...

وصلت إليه البرقية وهو خارج من أحد فصول الدراسة فقرأها وامتقع لونه ، وخرس لسانه ... ومضى إلى حجرة المدرسين ، فطرح كتابه ودفاتره ... واستوثق من وجود مسدسه ، فقد كان أعد العدة لأمره ، وتوقع ختام مأساته ... وخشى الوصول إليها

بعد أن تلفظ الروح ... فآثر السفر فى الطائرة ... كل ذلك شهد به إخوانه المدرسون ، وأورده النائب العام ... وهذا بحذافيره صحيح ...

ركب المتهم الطائرة ... ولم يكن فيها غيره وغير مسافر آخر لم يلق إليه بالا ... وارتفعت الطائرة فى الفضاء ... وحلقت وحلق معها فكر ذلك الذاهب إلى الموت ... أيدركها قبل فوات الأوان ؟ ... لو أسرعت الطائرة قليلا ! ... لكن ما بالها قد سمرت فى الجو ؟ ... لو كان ألف جناح لما سبقت صوابه الطائر ولا قلبه المتلهف ... وفجأة حدث أمر عجيب ... سمع صوتها جلياً يلفظ اسمه ... فأحس رجفة فى بدنه ... ثم شعر بعينيه تريان شيئاً من مادة لا علاقة لها بالأرض شيئاً مرّ كالشعاع الخاطف مخترقاً الطائرة ، مصعداً فى السماء ... فى تلك اللحظة أيقن أنها أسلمت الروح ... وكان هذا صحيحاً ، فقد روى لى أهلها أنها صاحت باسمه فى اللحظة الأخيرة ـــ وما أشك فى أنه سمع الصوت فى الطائرة فى عين اللحظة ، وما أشك فى أن الشاب قد تبدل حاله ، وهبط عليه سلام ، وأحس هو نفسه أنه من أهل الأبدية ... وأنه لا حاجة به إلى استئناف السفر ... فما شأنه بجثة هامدة فوق سرير ...

إن روحها قد مرت به الآن ، كأنها تدعوه أن يلحق بها فى الحال ... وأخـــرج الشاب مسدسه ، وصوبـــــه إلى رأسه وأطلق ... وهنا تدخل القدر ... وهز الطائرة هزة عنيفة فانحرف مجرى الرصاصة عن رأس المتهم إلى صدر المسافر الآخر الجالس خلف مقعده ...

ذعر المتهم فى أول الأمر ، ونسى أمره قليلا ... وبادر إلى المجنى عليه يسعفه ... ولكن ضابط اللاسلكى شعر بالحركة ... فنهض من مكانه وهرع إلى المصاب الخطير الشأن ... ورأى المسدس فى يد المتهم ... فلم يبق عنده ذرة من شك ... فانتزع آلة الجريمة من يده ووضعه تحت الحفظ وفطن المتهم إلى الجريمة التى تلصق به ، وفكر لحظة فوجد طريقها مؤدياً إلى ما كان يـروم ... وأن الاعتراف بالقتل العمد يضمن له الموت الذى يبتغيه ...

يا حضرات القضاة ... هذه وثائقى فى يدى ، وليفتح النائب العام باب التحقيق من جديد ليتضح له أن هذا المتهم قد ضلله ، وأنه يضع فى هذا القفص قلباً مجروحاً ، كل أمله الآن أن يدرك قرينته فى السماء ! ... »

وجلس المحامى بهدوء ... تاركا القضاة والنائب والحضور غارقين فى شبه ذهول ... ولبث الصمت معرشاً على القاعة ...

إلى أن سمع فيها نشيج خافت ... فالتفت القضاة فإذا هم يرون المتهم مطرقاً ... وهو يحاول جاهداً أن يتجلد ويكتم ما به ... وغالب نفسه إلى أن غلبته ، وخانه هدوؤه الذى كان مثار العجب ، وصاح فى قاعة الجلسة بصوت متهدج :

ـــ هذا المحامى كذاب ... مختلق ... كل ما قاله كذب واختلاق ... أنا القاتل ... لقد قتلت عن عمد ... قتلت عمداً ... اقتلونى ... اقتلونى ! ...

وأجهش بالبكاء ...

وسالت عبراته على صفحة خده كأنها تسطر حيثيات الحكم ...

ميلاد فكرة ! ..

ـــ ما هذا الذى يهز جدران رأسى ؟ ...

ـــ فكرة ...

ـــ وما تريدين ؟ ...

ـــ الخروج ....

ـــ الآن ؟ ... في جوف هذا الليل ؟ ... والناس نيام ، والنعاس يغلق منى هذه الأجفان ؟! ...

ـــ نعم ... الآن ... إذا لم أخرج الآن فلن أخرج أبداً ...

ـــ ألا ترين أنى أتثاءب ؟ ... وأنى لا أكاد أتماسك ؟! ... أو لا تستطيعين انتظاراً حتى الصباح ؟! ...

ـــ لا أستطيع انتظاراً ... الآن يجب أن أخرج ...

ـــ ولماذا اخترتِ لى هذا الوقت الذى أغرق فيه نوماً ؟ ...

ـــ لست أنا التى تختار ، لقد تكونت فى رأسك كما يتكون الجنين فى بطن أمه ، ونضجت للنزول ...

ـــ وكيف لم أشعر بك من قبل ؟! ... كل ما شعرت به أن

رأسى فارغ كالقربة المثقوبة ...

— إنى أتكون على غير وعى منك ... منذ أمد بعيد ... والآن قد تكونت ، وحان موعد خروجى ...

— خروجك إلى أين ؟ ...

— إلى الدنيا ... إلى الورق ... انهض أيها الخامل وضعنى على الورق ، وانشرنى على الملأ ...

— يا لك من مغرورة ! ... وماذا يجرى للدنيا من خروج مثلك الآن ؟! ...

— من يدرى ؟ ... ربما تغير وجهها ... وربما ازداد جمالها ... وربما انقلب أمرها أخطر انقلاب ! ...

— بك أنت ؟! ...

— نعم ... بى أنا ... وليست هذه أول مرة أفعل ذلك ... فهذه الأهرام التى تبصرها من نافذتك إنما هى فكرة ... وهذه الكهرباء التى تضىء حجرتك كانت فكرة ... وهذا الراديو الذى يسمعك صوت العالم هو فكرة ... وهذه النهضات التى ظهرت فى الأمم بدأت فكرة ... وهذه الأديان التى سمت بالبشر برقت فكرة ... وهذا الفن الذى نعمت به الإنسانية لمع فكرة ...

بل كل حضارة الآدميين على الأرض وليدة فكرة ... وكل الفرق بين نوع الإنسان وفصائل الحيوان ، أن الفرد من الإنسان يلد الفكرة ، والفرد من الحيوان لا يلد الفكرة ... فقم واطرح عنك الكسل ، وافرح ؛ لأن فى رأسك فكرة ...

ـــ وهل أنا وحدى الذى فى رأسه فكرة ! ... أليست هنالك فكرة فى كل رأس من رؤوس هؤلاء الملايين من الناس ؟ ...

ـــ نعم ... ولكن قليلا جداً من بينهم من تخرج له فكرة ...

ـــ إذن قيمتك أن تخرجى ...

ـــ نعم ... وأعيش ... وهذا أقدر أحداث الأرض ... وإذا كان لك إلمام بالحساب فتناول قلماً وورقاً وأنت ترى العجب ... إن على الأرض أكثر من ألف مليون شخص ... فإذا فرضت أن مليوناً واحداً فقط ينتج فى كل قرن من الزمان فكرة ، لكان فى العالم مليون فكرة حية فى كل مائة سنة ... وهذا لا يحدث أبداً ... فإن القرن الذى ينتج عشر فكرات تعيش وتنفع الناس ، يسمونه عصر النهضة ، أو العهد الذهبى للبشرية ! ...

ـــ لا يكفى إذن أن تخرجى من رأسى ...

ـــ لا ... ليس هذا بكاف ... إن الأفكار التى تخرج كل يوم من رؤوس المفكرين والشعراء والفنانين والعلماء كثيرة

العدد ... واليوم ـــ على الخصوص ـــ قد تضاعف محصولها ... لأن صناعة التفكير قد انقطع لها فى العالم عدد وافر من محترفى الفكر ... يملأون الصحف والكتب أفكاراً ، يزعمون كلهم أنها كونت من زبدة الخلود ... وهى فى أغلبها لم تصنع إلا من شيء كزبدة الفطائر التى تذوب فى الأفواه مع قدح الشاى كل صباح ! ...

ـــ كنت أحسب المهم مجرد خروجك من الرأس ....

ـــ المهم هو حياتى بعد ذلك ...

ـــ ربما كان المهم أيضاً ... ليس مجرد حياتك ؛ بل طول هذه الحياة ...

ـــ صدقت ! ... فقد أحيا فقط سنة واحدة ، كما تحيا البدعة أو « الموضة » ... وهذا لى أسخف أنواع الحياة ! ...

ـــ كم سنة تريدين أن تعيشى إذا خرجت من رأسى ؟ ...

ـــ أكثر منك أعواماً على كل حال ... أضعاف حياتك على الأقل ... إنى أتمنى أن أراك فى التراب وقد نخر عظمك ، وأنا فى تمام صحتى واكتمال روعتى ! ...

ـــ لعنة الله عليك وعلى تمنياتك ! ...

ـــ أوَ لا يسرك أن أعيش بعدك ؟ ...

ـــ بل يسرنى أن أعيش أنا بعدك ولو ساعة ! ...

ـــ وماذا تصنع بعمرك وقد ماتت أفكارك ؟ ... وما طعم حياة الأب الذى فقد أبناءه ، وعاش إلى آخر دهره وحيداً ؟! ...

ـــ هذا حقاً مؤلم ... وتلك مصيبة من ينجب الأبناء ، وما دام فى إمكانى أن أمنع ميلادك ... فلماذا لا أفعل ؟ ... إن فى خروجك متاعب ...

ـــ وفى خروجى أيضاً مزايا ! ....

ـــ ما هى هذه المزايا ؟ ...

ـــ أن ترانى مخلوقاً تام التكوين ، يشبهك ويذكرك بعيوبك . ويعيش أمامك مرآة لطباعك ، وخزانة لصفاتك وفضائلك ، واستمرارا لوجودك ، وقد يعجب الناس وينفعهم فيرضى غرورك ...

ـــ حقاً .. غرورنا وحده هو الذى يسمح لمثلك بالخروج ...

ـــ ولهذا يحسن بى الانتفاع بهذه الطبيعة فيكم ... هيا أخرجنى ! ...

ـــ ولكنك لم تخبرينى ما مصلحتك أنت فى الخروج ؟! ...

— ما أحمق سؤالك ! ... أتستطيع أن تسأل خلية عن مصلحتها فى الحياة !؟ ... إن الرغبة فى الحياة ملتصقة بذات وجودنا ! ...

— أنت إذن موجودة الآن فى رأسى ؟ ...

— طبعاً ... وهاأنذى أصيح بك وألح طالبة الخروج إلى الحياة ...

— انتظرى قليلا ، حتى أحضر قلماً وورقاً ...

— حذار أن تبطىء ...

— وما الضرر ؟ ...

— أحس أنفاسى توشك أن تخمد ، ونورى يوشك أن يخبو ... لقد ناقشتنى طويلا واستنفدت قواى ، ونهكتنى وأتعبتنى قبل أن أولد ...

— يا لسوء الحظ ! ... القلم ... نسيت موضعه ... أما الورق فلا يوجد الساعة غير هذه الورقة على المائدة ... وهى ملفوفة بها الفطائر التى أحضرتها لفطورى ... أما وقد أيقظتنى من نومى اللذيذ ، فلا أقل من أن أبدأ بالطعام ... فلا نفع لرأس ممتلىء إذا كانت المعدة خالية ... تجملى بالصبر إذن ، وانتظرى حتى نفرغ من أمر الفم ، ثم نعنى بأمر العقل ، وثقى

أنى سأسرع ولا أجعلك تنتظرين طويلا ، وأثناء المضغ نبحث لك عن القلم الضائع ، وهأنذا أبحث ... وها هو ذا قلم فوق الخوان. لا بأس الآن من إخراجك أيتها الفكرة ... هلمى ... تكلمى ... اخرجى ... يا للعجب ! ... مالك ؟ ... ما هذا الصمت ؟ ... ما هذا السكوت ؟ ... أين أنت ؟! ... أين ثرثرتك التى أيقظتنى ؟ ... أيتها الفكرة ؟ ... انطقى ! ... لاتوقفى اللقمة فى حلقى ! ... أين أنت ؟ ... هل ذهبت ؟ ... هل مت ؟ ... واأسفاه ! ... لقد مت قبل أن تولدى ...

نعم ، ما من شك فى أنها ماتت فى رأسى قبل أن تولد ... أتراني أبطأت عليها ؟ ... أتراه ذنبى أم ذنبها ... ما علينا ... فلتذهب هى إلى أعماق جهنم ! ... وأنا إلى نهاية الأكل ثم إلى فراش النوم ! ... ليست هذه أول مرة تصنع بى ما صنعت ، ولست أنا أول من يحدث له هذا ... إنما هى فكرة تولد وتموت ... أو تموت ولا تولد ، كغيرها من ملايين الأفكار التى تهز رؤوس الملايين من الناس ، ملايين المرات فى ملايين اللحظات ! ...

وجه الحقيقة

كيف عرفت أني أقطن هذا النزل ؟ ...

قلتها وأنا أقود صديقى وناشر كتبى إلى حجرتى ، وقد سمعت صوته بالباب يسأل صاحبة النزل عنى ويذكر لها أوصافى قبل أن يذكر اسمى ، كأنما قدر فى نفسه أنى تسميت فى هذا البيت باسم مستعار ...

ولم يكد يدخل الحجرة حتى أرسل نظرات مستطلعة إلى كل شيء حوله ، وأبصر حقائبى الثلاث على ظهر خزانة الملابس وبعض الكتب على رأس الفراش ، ونظر إلى « الجراموفون » المفتوح فوق مائدة صغيرة ، والقلم الرصاص الملقى بين أوراق منثورة على مكتب فى أحد الأركان ، وإناء من البللور الأزرق فيه بَضع زهرات ، فوقف لحظة يهز رأسه ، ثم جلس على مقعد قريب وهو يقول :

ـــ هذا أنت حقيقة ... تلك بعينها حياتك غير المستقرة ... أخبرنى إلى متى التنقل من نزل إلى نزل ، ومن فندق إلى فندق

وإخفاء مقرك عن الجميع ، حتى عنى ؟ ... لقد قابلنى اليوم أحد الناس وسألنى عن بيتك فلما أظهرت جهلى صاح دهشاً :

— « رجل يشار إليه بالبنان ، ولا يعرف لـه حتـى الآن عنوان ... »

— وأنت ... كيف عرفت عنوانى ؟ ...

— تتبعت خطاك ذات ليلة ... أرجو أن تغتفر لـى هـذا الفضول ... إنما أردت ...

والتفت إلى المكتب والأوراق ثم أدار وجهه شطر باب مغلق يفصل بينى وبين الحجرة المجاورة وابتسم ، وقال وهو يتنسم شيئاً بمنخاره الطويل :

— إنى أشم هنا رائحة قصة تكتب !؟ ...

— هنا قصة حقاً ... ولكنها لم تكتب ...

ونظرت على الرغم منى إلى بـاب الحجـرة المجـاورة وتنفست ... ولحظنى الناشر ، فأسرع صائحـاً فـى لهجتـه الحماسية المسرفة . وإشارته التمثيلية التى كلها تهويل : إنك قد كتبتها ... إنا قد ظفرنا بكتاب العام ! ... إننا قد نشرنا كتاب العام ...

فوضعت إصبعى على شفتى أطلب إليه الصمت ، وأرهفت

سمعي ناحية الباب الفاصل ، وإذا ضحكة رقيقة قد بلغت مسامعنا ، فنظرت إلى صاحبى فإذا على وجهه إشراقة ؛ ومرت لحظة ولم نسمع شيئاً ... فالتفت صديقى إلى كالمأخوذ :

ـــ صدقت ! ...

ثم أشار برأسه الأصلع وشعيراته القائمة فى وسطه كأنه رأس هدهد ، إلى ذلك الباب ، وسأل فى همسة :

ـــ من هى ؟ ...

فقلت فى غير وعى :

ـــ ماذا يهم ؟ ...

ـــ حقاً .. ما دامت تستطيع أن توحى إلينا ...

ـــ آه أيها الناشر ، بل أيها الخاسر ! ... أنت الذى يحيل أجمل عواطفنا الإنسانية إلى هراء يباع ويشرى ... نعم ... لو علمت أن كل ما أكتب لك وأنشر عندك منذ شهور ، إنما خرج من خصاص هذا الباب ! ... لقد كذبت عليك يوم قلت لك إن « موزار » وحده هو الذى يرعى الآن فنى بقيثارته السحرية الصافية ... ضحكاتها الصافية هى أيضاً ... تلك الطفلة التى لم تجاوز العشرين ... عهدى بقلبى دائماً لا يعلق إلا من تقاربنى أو تكبرنى فى العمر ... لأول مرة فى حياتى أهتم لأمر طفلة

تصغرنى بكل هذه الأعوام ... أتلك علامة الهرم ؟ .

والتفت إلى مرآة خزانة الملابس ، ونظرت إلى تلك التجاعيد التى برزت سطورها على صفحات الوجه ، كأنها إنذار رسمى من الزمن ... ومضيت :

ـــ لا ... لن أكتب شيئاً ... لقد سئمت هذه الحياة ... أريد مرة واحدة أن أحب للحب ...

فصاح بى :

ـــ تحب للحب !؟ ... وأنا أغلق حانوتى ، وأبيع مطابعى ، وأوقف مجلتى ! ...

ـــ اطمئن ... لن يحدث ذلك أبداً ... واأسفاه ... لقد خرج أمرى من يدى منذ أمد طويل ... إنى لم أخلق « مستهلكا » للسعادة بالمعنى الاقتصادى للكلمة ... إنما أنا « منتج » فقط لهذا الصنف فى السوق ...

ـــ طباخ « السمسم » لا يذوقه ...

ـــ إن المأساة الكبرى فى حياتى اليوم أيها الصديق ، هى أنى لم أعد أفرق بين العالم الخارجى الحقيقى وبين ذلك العالم الوهمى الذى أصنعه بالمداد والورق وأدفع به إليك وإلى غيرك من تجار « الأحلام » وسماسرة « الأوهام » ! ... إنى لم أتبين

ذلك إلا اليوم ... إنى منذ سمعت من خلال هذا الباب صوت تلك « العصفورة » الجميلة التى يقولون لى هنا إنها « امرأة » وهديل ضحكاتها الصغيرة ، وأنفاسها الخفية وسعالها اللطيف ، وأنا لا أنفك أقيم لها فى رأسى تماثيل من ذهب لا « لزبائنى » ولكن لنفسى ... وهنا المصيبة ... منذ شهور وأنا أدير « الجراموفون » لها هى وأوقن أنها لا بد مأخوذة مثلى « بموزار »بل إنى قد سمحت لنفسى أحياناً أن أتصور أنها تتساءل : « من هذا الجار ؟ ... » ولقد كان بابى مفتوحاً ذات يوم وكنت فى ناحية من الحجرة فأبصرتها تمر فى الدهليز ، فلما اقتربت من بابى رفعت عينيها تنظر نظرة المستطلع ...

عفواً ... كلمة « المستطلع » هذه لاتثق بصحتها كثيراً ، فهى من تقدير ذلك الرأس الذى يخلط الآن الصدق بالكذب ...

على أنى لم ألبث أن فتلت — كعادتى — من شعاع هذه النظرة العابرة سبائك من الأحلام ... كل ذلك دون أن أكلمها أو أعترض سبيلها ... أهو خوف من مواجهة الحقيقة ؟ ... أم استغناء عنها بعالمى الذى فى رأسى ؟ ... لست أدرى ! ...

إلا أنى جعلت أرقب حياتها ... ووجدت أحياناً ما كاد

يخيب ظنى ... فهى امرأة متزوجة ، وقد رأيت زوجها فتى من أجمل الفتيان ، وهى مثال للكسل والتراخى والفراغ ، فهى فى نظرى كأنها « دوقة » لا تستيقظ فى الصباح إلا قبيل الظهر ، ولا تنام إلا فى الثانية بعد منتصف الليل ... حياتها تسير على وتيرة واحدة ... نهوض متأخر ، ووقت ينفق فى الزينة ومشاغل نسوية تافهة ثم غداء تتناوله بمفردها ... لماذا بمفردها ؟ ... هذا ما عجبت له أول الأمر ...

ثم يأتى زوجها من عمله عند العصر مع بعض أصدقائه فيلعبون الورق أو يتجادلون فيمالا طائل تحته حتى المساء فيخرجون جميعاً ولا تعود الزوجة مع زوجها إلا إذاانتصف الليل ...

ولقد أدهشنى فى الليل أمر : هو الصمت العميق فى الحجرة عقب عودة المرأة إلا من صوت كتاب تقلب صفحاته من حين إلى حين ... وقد كنت أقوم أحياناً نصف قيام فى فراشى فأبصر نور حجرتها المجاورة ينفذ إلى من خصاص الباب ... ولا يسكت حفيف الكتاب وينطفئ النور إلا فى الهزيع الأخير من الليل . وقد أيقنت من ذلك أن الرجل يقرأ كثيراً ، وأن امرأته لا شك قد نامت منذ ساعات وتركته مستيقظاً تحت « الأباجور » غير أنى أنكرت كيف أنى لم أسمع مرة واحدة صوت كلام ، كأنما الغرفة لا تضم

غير شخص واحد ... ولا أكتمك أنى وجدت وما زلت أجد متعة وسروراً فى تتبع أحوالها ... ولعل هذا يفسر لك سر انزوائى فى النزل ، لا أخرج إلا قليلاً ...

إنى أنظر الآن وهى تجرى فيه حياتها فلا أسأم ، بل النهر الضيق الصغير الذى تجرى فيه حياتها فلا أسأم ، بل إنى لأرى أيامى الآن عريضة عميقة زاخرة بأحداث وتفاصيل ومشاعر ومناظر ، قد لا يكون لها وجود إلا فى رأسى ، ومع ذلك ... ما الضرر ؟ ... ولقد أردت يوماً أن أعرف عنها أكثر من ذلك بوسائل أخرى ، فقلت لصاحبة النزل :

« إنك حقاً يا سيدتى تقدمين لبطنى أطيب الطعام ، وتعدين غرفتى أحسن إعداد ، ولا ينقصك إلا أن تقدمى كذلك مادة الغذاء لقصصى وكتبى فتؤدى لى وللأدب أجل خدمة » ...

فحملقت العجوز فى وجهى وكأنها لم تفهم ... فأبنت لها عن قصدى ، وسألتها أن تخبرنى بأخبار القاطنين معى ، علنى أجد فيها بغيتى فلم يبد منها تحمس لهذه المهمة وأدركت أن تقديمها إلى طبقاً جيداً من « البفتيك » هو عندها أجدى وأجل من تقديم « موضوع » كتاب خالد !! ... وعندئذ فهمت أن تلك التيجان التى يضعها على رؤوسنا أمثالك من الناشرين والمعجبين ؛

إنما هى شىء لا يبهر غيرنا نحن وغير أولئك الغافلين الذين استطعنا أن نخدر أحلامهم بدخان الكلام العبق الكثيف ...

ولكنها مع ذلك تحدثت إلى ... وعلمت منها أن تلك الزوجة الصغيرة قد اقترنت منذ عامين بهذا الشاب الجميل دون أن يعلم بذلك أمه المريضة بالقلب ... وأن أمه كانت تريده لإحدى قريباتها الموسرات ... وهو يخشى على أمه التى يحبها أثر الصدمة لو علمت بهذا الزواج ... فهو من أجل ذلك قد وضع زوجته فى هذا النزل وهو ما يزال يقطن عند والدته ، يؤاكلها فى الغذاء كعادته ويبيت عندها دائماً كأن لم يحدث قط شىء ... عجباً !! ... إذن الصغيرة هى التى تقرأ وحدها فى الليل !! ... ولقد صادفت أنا حقيقة الزوج عائداً مع زوجته ذات ليلة ... فما إن أوصلها إلى الباب حتى تركها وعاد إلى بيت والدته .. إن مظهر هذا الزوج عجيب .. إن هذا الفتى أقرب فى تصرفاته إلى الخليل مع خليلته ومع ذلك فإن تلك الزوجة تحبه حباً عظيما ، وأنها تتألم ، وقد بثت صاحبة النزل بعض همها ... إن هذا الزواج الذى بدأ بالحب قد انتهى اليوم من ناحية الفتى إلى شىء من الفتور ، وهى تخشى أن يكون هناؤها قد انقضى وأن يكون شأنها شأن الوردة التى لا تعيش أكثر من

يوم ! ...

ولقد جاءتني صاحبة النزل ذات مساء وأنا أدير « الجرامونون » وحملت إلى « اسطوانة » قالت إنها للسيدة المجاورة وهمست فى أذنى إن السيدة تحب سماعها لأنها تذكرها بحال كحالها ... فقلبت « الأسطوانة » فى يدى فإذا هى أنشودة المغنية الباريسية « داميا » مطلعها :

« فقدت شبابى بفقد حبى »

فلم أكتم خيبة أملى لتفاهة هذه الأغنية إلى جانب تلك الكنوز من الموسيقى العليا التى تسمع من حجرتى ... ولكنى ومع ذلك أطلقتها من فرنوغرافى « مرة واحدة من أجلها ، ولم أجسر على إعادة الكرة ... إنى ما زلت أحتفظ باسطوانتها ... ها هى ذى فى الخزانة الصغيرة ، غير أنى لا أحب أن أديرها لأنى لا أرى من الذوق أن أذكرها كثيراً وهى فى مقتبل الشباب بهذا المصير المخيف الذى تخشاه ، لم أجرؤ على ذلك وقد تقول إن هذه الأغنية تخيفنى أنا وتحزننى لأنها تذكرنى أنا أيضاً بحالى ... وهى فى حقيقة الأمر لا تنطبق إلا على وربما كان فى هذا شيء من الحقيقة ...

قد تسألنى بعد ذلك أيها الصديق : ما موقفى الآن بين كل

هذا ؟ ... لا أستطيع أن أجيبك ! ... كل ما أعرف أن هذه المرأة الصغيرة لها على اليوم وعلى عملى تأثير واضح ، وأن الصفاء الذى يجرى بين السطور التى تنشر لى هذه الأيام إنما ينبع من ضحكاتها الصغيرة الرقيقة التى تشبه ضحك الأطفال ... إنى أفكر فى أمرها كثيراً ، ويخيل إلى أنها على الرغم من تفاهة حياتها وسخف المتصلين بها لا بد أن يكون فى نفسها جانب ذو قيمة ... أتراها تعنى وتصغى إلى كل تلك الموسيقى الجديدة التى تنطلق من حجرتى ؟ ... إن ما يخيب أملى فيها أنها لا تجلس منفردة ساعة واحدة ... فإن لزوجها أصدقاء من حثالة الناس لا ينقطع لهم وابل طول النهار يحيطون بها كما يحيط الذباب بشىء حلو ، وينجذبون إليها كما ينجذب الإنسان إلى كل شىء جميل فلا يتركونها لحظة منفردة سواء حضر زوجها أو غاب وليس عندهم — كما قلت — إلا لعب الورق والكلام فى مراقص الليل و « الكاباريهات » التى يقودون إليها هذه الفتاة كل ليلة ، فلا تعود كما ذكرت لك إلا بعد منتصف الليل ...

أمر واحد ينقذ هذه المرأة فى نظرى ، هو مطالعتها الليلية الطويلة ، فهى عندى كماء مقدس يطهر كل شخصيتها الفارغة ، ويغسل كل ذلك السخف الذى يبدر فى حياتها بالنهار ... هذا

أيضاً أخشى فيه مواجهة الحقيقة ، وأخاف أن أعلم يوماً أن هذه القراءات الطويلة إنما هي فى « ميشيل زيفاكو » و « أرسين لوبين » وأنواع أخرى قد لا أعرفها من حثالة الكتب ...

إنى أشفق على هذه الطفلة من أشياء كثيرة ، وأعرف تلك الأخطار التى تهدد الزوجة المهملة ، ولقد سمعت بأذنى حواراً دار بينها وبين صديق لزوجها انفرد بها يوماً وقدم إليها مبلغا من المال وظن أنها فى حاجة إليه ... فصاحت به : « إنك تنسى الاحترام الواجب لى ! ... » ولقد أعجبنى عندئذ موقفها ، ورأيت منها نفساً تجاهد جهاد الأبطال لتنجو من مزالق الطريق الذى تدفعها إليه الظروف ، لعلك تعجب من خوفى عليها هذا الخوف ... نعم لكم أتمنى لو أجعل من هذه الصغيرة إنساناً ذا قيمة ، وأن أوجه تيار حياتها إلى وجهة سامية ، وأن يستكشف فيها زوجها يوماً كنزاً لا يقوم بمال ، لو أن مثله يستطيع أن يستكشف شيئاً ، إن لم يفعل فعلها هى التى تفتح عينيه وتنشئه نشأة أخرى ... تلك مشاعرى نحوها ... إن عواطفنا لا يمكن أن تكون إلا جميلة نبيلة نحو من يوحى إلينا بشىء جميل نبيل ... لقد فكرت كيف أستطيع أن أهذب هذه الصغيرة من حيث لا تدرى ... ووددت لو

أستطيع أن أكتب إليها ... فقد تنفع كتاباتى هذه النفس المسكينة ... ولعل مخاطبتى إياها تخرج من نفسى ثروة قد تنفعنى وتنفعك بما لم تكن تحلم به يوما ... ولقد سطرت لها فعلا هذه الرسالة.أأقرؤها لك ؟ ... استمع : سيدتى ، أيمكننى أن أسألك معروفاً ؟ ... اسمحى لى أن أكتب إليك من حين إلى حين ... لا تردى على رسائلى ... أعيديها إلى فقط بعد برهة من الزمن ... رسائلى هذه وحدها هى التى قد يكون لها عندى كل القيمة ... لماذا اخترتك بين مئات لهذه المهمة الغريبة ... أولا : لست أنا الذى أختار تلك التى تستطيع أن تسيل نفسى على الورق ، ولا بد لنفسى أن تسيل لأن بضاعتى التى أتاجر فيها ، هى إحساسى ... إن دموعى وضحكاتى .ومصائبى تدر أحياناً على الذهب وربما شيئاً من المجد ... هكذا خلق ذلك الكائن العجيب اللعين الذى يسمونه : الفنان ... أما شخصك وماله عندى من احترام فلا دخل له فى الموضوع بحال ... » لم أرسل إليها هذا الكلام الحسن الحظ ، فقد قلت فى نفسى بعد ذلك :ماذا يعنى هذه المرأة من أمر الذهب الذى سأجنيه ، والمجد الذى قد تضحك من مجرد اسمه ؟ ... ومن يضمن لى أنها تحمل خطابى المعنى الذى أرد به أنا ؟ ... مرة أخرى شعرت أنى لم أعد أمير الحدود الفاصلة

بين عالم الحقيقة وعالم الخيال ... إن هؤلاء الأشخاص الحقيقيين الذين يعيشون إلى جوارى راضين بحياتهم التى أسميها تافهة، وهم ولا شك هازئون بى إذا علموا أنى أريد أن أغير مجرى أيامهم ... إنهم ليسوا مخلوقات تتحرك على الورق طبقاً لمشيئتى ، وتتصرف تبعاً لمنطقى ... ولكنهم ناس لا سبيل لى على حياتهم ... ينبغى لى أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم ... ألا ترى معى أيها الصديق أنه ينبغى لى أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم ؟! ...

فأفاق صاحبى من تأثير ذلك الحديث الطويل وقال :

— كيف تتركهم وشأنهم والقصة لم تتم ؟ ...

— لا أريد أن تتم ... يجب أن تقف عند هذا الحد ...

— نحن لم نعرف بعد عن هذه المرأة إلا ما صورته لك مخيلتك ...

— يكفينا هذا ... إنها لمخاطرة أن نعرف صورتها الحقيقية ... مخاطرة باهظة الثمن فالزم الصمت ... ولا تسكت تلك القيثارة التى تسيل على أنغامها نفسى . فإن الطمع قد يذهب عنك حتى تلك السطور التى كنت تنالها منى ...

وفى اليوم التالى ، فى نفس الساعة ، عاد إلى صديقى الناشر وجلس أمامى فى نفس المجلس من حجرتى ، وأطرق قليلا ثم قال

لى بصوت خافت :

ـــ هل من جديد ؟ ...

ـــ وانبعثت من عينه نظرة إلى الباب الفاصل ، فبادرت قائلا :

ـــ إنها ليست هنا ... لقد خرجت منذ قليل فى صحبة تلك الزمرة ...

فاطمأن فى كرسيه وأرسل صوته على طبيعته طالباً إلىّ أن أمضى فى الحديث عنها ...

ـــ ماذا تريد أن تعلم منى أكثر مما علمت ؟ ... إن حياتى الآن جميلة على الرغم من كل شىء ... إنك لترى وتلحظ أن إنتاجى غزير وخيالى متقد ، ولا ينبغى لى أن أغير هذه الحياة الآن ...

إنى على كل حال غير قدير على ذلك على الرغم من ... ولكنى مع ذلك ...

آه أيها الصديق ! ... يجب أن أفضى إليك بشىء خطير ...

لقد كذبت عليك أمس إذ قلت لك إنى لم أكلمها بعد ... الحقيقة أنى خاطبتها ...

ـــ خاطبتها ؟ ...

ـــ منذ يومين ... دخلت المطبخ أطلب فنجانا من القهوة فرأيتها فى « روب دى شامبر » يا بانى إلى جانب الحوض تضع أزهاراً

صغيرة فى إناء ، وتصب عليها ماء من الصنبور ، وتحادث صاحبة النزل العجوز بالإيطالية ، فانحنيت برأسى انحناءة خفيفة محييا ... ورأيت أن أنتهز الفرصة للكلام ، فبادرت أسأل فى دهشة : سيدتى ... أتعرفان الإيطالية ؟ » فقالت العجوز : « أتكلمها فقط ، ولا أكتبها ولا أقرؤها ، أما السيدة الصغيرة فتعرفها تمام المعرفة ، وعندئذ أجابت الصغيرة : « نعم ... إنى تعلمتها فى المدرسة وأعرفها تمام المعرفة » ... هنا لست أدرى ماذا دفعنى أن أقول للصغيرة : « أتأذنين لى فى أن أكلفك ترجمة رسالة صغيرة أريد أن أبعث بها إلى موسيقى إيطالى كان قد وضع ألحانا لرواية لى ؟ » فقالت للفور فى أدب : « بكل سرور ... اكتب الرسالة بالفرنسية وأنا أنقلها إلى الإيطالية » ... ولم أستطع أن أحادثها أكثر من ذلك ، فقد حملت آنيتها وحيت برأسها تحية خفيفة ، كلها تحفظ وانصرفت إلى حجرتها ... وتركتنى فى مكانى كالتمثال » وأفقت من دهشتى وعدت فى الحال إلى حجرتى ، وقد نسيت أن أطلب القهوة التى كنت قد ذهبت إلى المطبخ من أجلها ... ولكن أى قهوة ؟ ... لقد أحسست أنى ظفرت بغنيمة لا تقدر بمال ... إن بينى وبينها اليوم صلة ، لا أقول وثيقة ، ولكنها على أى حال تبشر بخير ... فهى ستقوم لى بخدمة ... لقد

وعدت ، وعندئذ يجب أن أقابل الجميل بالجميل ... وجعلت أفكر فيما ينبغى أن أقدم إليها أو أصنع من أجلها شكراً على خدمتها ... أهدى إليها كتاباً من كتبى ... أو أشترى لها تحفة صغيرة تذكاراً لما قامت به من أجلى ، أو أن أدعوها ... كلا ، هذا كثير ... ولم لا أدعوها إلى عشاء ساهر مع زوجها وصاحبة النزل ؟ ... كل شيء عندئذ جائز ، وإن المجال متسع أمامى وليس لى إلا أن أختار ... المهم هو أنها قد بدأت بتقديم خدمة لى وجلست من فورى إلى مكتبى أكتب الرسالة بالفرنسية ولكن أى رسالة ؟ ... إن هذا الموسيقى الموهوم ليس إيطالياً ... الواقع أن هناك موسيقياً مصرياً أرسل إلى عدة صفحات من نوتة موسيقية خاصة برواية لى لأطلع عليها وأبدى رأيى فيها ... ولكن ماذا يمنع من افتراض أن هذا الرجل إيطالى لا يعرف غير الإيطالية ؟ ... فلأكتبن الرسالة وأدفعها إلى الصغيرة لترجمتها كما اتفقنا ... وتناولت القلم الرصاص وخططت على الورق خطاباً بسيطاً برىء اللهجة ... لست أنكر أن عواطفى تركت بعض الأثر بين السطور ، ولكن ذلك شيء لا يلمحه أحد غيرى ... إن مجرد تصورى أن الصغيرة ستقرأ هذا الكلام ، جعل نفسى تخرج عن طوعى وتدخل متلصصة فى هيئة عبارة أو عبارتين تسيلان رقة

وعذوبة ... إنى لن أريك هذا الخطاب الآن ... ومع ذلك انتظر ... لم لا أقرؤه عليك الساعة ؟ ... إنه كما قلت لك خطاب برىء ، وليست لى الجرأة أن أكتب أكثر من ذلك ... وليس فيما أرى من حسن اللباقة وحسن التصرف أن أكتب غير هذا ... ها هو ذا ... اسمع :

عزيزى المايسترو ... وصلنى جزء من الألحان الموسيقية التى وضعتها لروايتى ... وقد دهشت قليلا إذ وجدت الغناء فيها غناء على الموسيقى الخالصة ، إن الغناء ليس إلا الصوت الآدمى ، وإن الصوت الآدمى الجميل ليستطيع أن يسحر الناس بنفسه من غير حاجة إلى ملحن ... لقد سمعت ضحكات قصيرة لغادة صغيرة لا تقل فى عذوبتها وفى رقتها عن ضحكات الطفل الإلهى «موزار» فى قطعة « المينويتو » ولكن الأوركسترا فى التلحين هو الجانب الذى يشرح ويفسر العمل بأكمله ، وإنى لأرى التفسير الموسيقى الخالص قليل المقدار فى هذه الصفحات التى بعثت بها إلى ، فى إمكانك مع ذلك أن ترتاب فى صحة حكمى ، إنى لست أنكر أن بعض الأنواع — ولا سيما الأشكال والقوالب — ما زالت تفلت من نطاق إحساسى الموسيقى ، يجب أن يبلغ الإنسان من الثقافة ذروة هائلة ، وفى سلامة الذوق درجة عالية ، حتى لا يخطىء

القيم الصحيحة فى الفن والجمال ، إن الجمال إله لا يكشف قناعه لكل الناس ... إن رأيك الأخير مع ذلك هو ما سأنزل عنده ... ولك تحيتى » ...

وطويت هذه الرسالة مصحوبة بالنوتة الموسيقية حتى لا تظن الجميلة أن الأمر من أساسه مختلق ، ووضعت كل هذا داخل غلاف كبير من الورق الشفاف وفتحت بابى أنتظر مرورها فى الدهليز أو الردهة فأسلمها ذلك ، وشغلت بعدئذ بعملى وفنوغرا فى أسمع تارة أنغام « موزار » الراقصة فى جو الحجرة وأقول فى نفسى مبتهجاً : « إنها الآن ولا شك تسمع خاشعة باسمة » وحمستنى كل هذه الأفكار فى ذلك اليوم للعمل فأمسكت قلمى وغرقت فى سيل وحى غزير ، وملأت صفحات من كتاب جديد أعمل فيه ، ومقالات مطلوبة للمجلات ... وإذا الساعة التاسعة تدق ، وإذا الصغيرة قد خرجت من حجرتها بملابس الخروج ، وفى زينة زادتها جمالا على جمال ... ويممت شطر البـاب الخارجـى ، فأسرعت واتجهت إليها بالمظروف قائلا لها : « إن الرسالة داخل هذا » وشكرتها ... فتناولت منى المظروف وعـادت بـه إلى حجرتها ، فوضعته فيها وخرجت لسهرتها ، ومكثت أنا فى مكانى من حجرتى طول الهزيع الأول من الليل أكتب وأنتظر أو بتها ،

حتى كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ... فعادت فى موعدها المتأخر ، وسمعتها تدخل حجرتها ... على أنى لم ألبث أن دهشت وخفق قلبى سروراً !... ذلك أنى أصغيت فى هدوء الليل ، فإذا بى أسمع صوت الغلاف الشفاف ولـه خشخشة واضحة يفتح فى عجلة ولهفة عقب اجتيازها عتبة بابها ، وليس من شك لدىّ فى أن هذا أول ما فعلت عند دخولها حجرتها ، فهى لم تخلع ملابسها ولا معطفها ولا حتى قبعتها ... كأنى بصبرها النافد لا يريد أن ينتظر ثانية ، وكأنى بها مدفوعة بحب استطـلاع غريب ، أو لعلى أنا أسرف فى الخيال والظن والافتراض.وقولى الآن ـــ كما ذكرت لك ـــ لا يعتمد عليه كثيراً ، فما أبعد المحب عن تصور الحقيقة كما هى ... إن فى رأس كل محب يدا مغرضة تصور الأشياء كما يريد قلبه أن تكون .. على أن الواقع الذى لا غلو فيه هو أنها فضت غلافى وهى بملابس الخروج ، إذ لم تمض أى فترة بين اجتيازها عتبة حجرتها وبين سماعى خشخشة الغـلاف ، وأصغيت وأنا معلق الأنفاس ، ومضت لحظة سكون ما شككت فى أنها اللحظة التى استغرقتها مطالعة الرسالـة ، وإذا بى أسمع الخشخشة من جديد كأنها الرسالة تدس فى غلافها ، ثم وضع كل هذا فى مكانه ، وسكن الصوت إلا من صوت خطواتها فى الحجرة

وصوت خزانة ملابسها تفتح وتغلق وصوت خلع ملابسها ودخولها فراشها ...

وأرهفت الأذن علنى أسمع ما ينبئنى بعودتها إلى المظروف لتعمل ، لتبدأ فى الترجمة ... فلم أسمع غير حركة تقلب صفحات جريدة أو كتاب ، فعلمت أنها تقرأ فى سريرها تحت « الأباجور » قبل نومها كالمعتاد ... فظللت ساهراً حتى رأيت نورها يطفأ من خصاص الباب الفاصل ، وكانت الثانية بعد منتصف الليل ، ولم يبق لى دافع على السهر ...

فطويت ورقى وأطفأت نورى ونمت ... وفى الصباح استيقظت سعيداً راضياً ، وارتديت ثيابى وأنا أصفر بفمى وأترنم وأكلم المرآة بصوت خافت ... فهى ما زالت نائمة وأستار نوافذها ما زالت مسدلة ، وخرجت لشأنى كعادتى ، ورجعت عند الظهر فى ميعادى ، ولم أكد أدخل غرفتى حتى وقع بصرى على مظروفى فوق مكتبى فأسرعت إليه أفحصه ، فإذا كل شيء فيه : الرسالة الفرنسية والنوتة الموسيقية كما كانتا ... وليست هناك ترجمة ، وسمعت العجوز صاحبة النزل صوت أقدامى ، فجاءت إلىّ مسرعة تقول : « إن السيدة الصغيرة تعتذر وتأسف لعدم استطاعتها القيام بما طلبته منها » ... فلم أجد ما أجيب به غير

قولى : « لا بأس » ... وذهبت المرأة وتركتنى وقد تهدم كل ذلك البناء الذى شيدته فى رأسى فى مثل لمح البصر ...

وما بلغت فى حديثى هذا الحد ، حتى رأيت وجه صديقى الناشر تغير ، وعلته كآبة مظلمة ... ورأى سكوتى عن الكلام ، فقال من حلق جاف :

— وبعد ... ؟

— لا شيء ... انتهى الأمر كما ترى ... على أنى فكرت طويلا وتساءلت : لماذا تصرفت الصغيرة هذا التصرف ؟ ... لماذا على الأقل لم تسلمنى مظروفى يداً بيد كما سلمته لها ، وتعتذر إلى بنفسها ؟ ... أكثر من ذلك : لقد صادفتها بعد ئذ فى الدهليز ، فكانت تميل عنى بوجهها وتجعل كأنها لم ترنى ، وتسرع فى الابتعاد دون أن تشير بكلمة إلى موضوع الرسالة ، بل دون أن تلفظ حرفاً أو تحنى رأسها بتحية ... لقد انقطعت كل صلة بيننا ، حتى تلك الصلة الرسمية العادية التى يفرضها الأدب واللياقة ...

وهنا مد صديقى بيده إلى قائلا :

— أرنى هذه الرسالة ! ...

فناولته إياها ، فأمعن النظر فى عباراتها ، فقلت له :

— أتراها فهمت منها ؟ ...

ـــ مؤكد ... إن عبارتك التى تصف بها ضحكات الغادة واضحة وضوح النهار .

ـــ لكن ... لماذا ظننت أنى أعنيها هى بالذات !؟ ... إن هذه الصفات شىء استكشفته أنا سراً ولا يعلم به غيرى وغيرك ... فكيف تعلم هى أن لها ضحكات رقيقة !! ...

ـــ يا عزيزى ! ... أهنالك امرأة تجهل مواضع الحسن فيها ؟ ...

ـــ آه يا صديقى!... إنى كنت سيئ التصرف فى هذا الأمر وقد ظهرت فى عينها مغازلا من النوع المبتذل ...

فأطرق صاحبى مفكراً وقال :

ـــ شىء يؤسف له ! ... وعلام عزمت ؟ ...

ـــ على الرحيل ...

قلتها فى هدوء وحزن ... فرفع صاحبى فى الحال رأسه :

ـــ الرحيل ؟! ...

ـــ ما من حل إلا هذا ... هذا هو الختام الطبيعى لما حدث ... إن من الغلطات ما ندفع ثمنه غالياً ... لقد قلت لك بالأمس ينبغى أن يقنع أمثالنا بعالم الأوهام فلم تقتنع بقولى ... هاهى ذى الخطوة الأولى خارج عالمنا... أتعجبك هذه النتيجة؟... إن إقامتى الآن فى

هذا النزل أصبحت مستحيلة ... فإن من الشاق على نفسى أن يذهب اعتبارى من نفس هذه الصغيرة ، وهى بعد لم تعد توحى إلى بشىء ... هاهى ذى الأوراق بيضاء ، ولم أكتب شيئاً منذ وقع هذا الأمر ... لقد أنذرت العجوز بإخلائى الغرفة آخر هذا الشهر ، فاغتمت ووجمت وحاولت أن تعرف السبب ، فأبديت عذراً واهياً ، فسكتت على مضض ... ولكنى أنا أشد منها غماً وحزناً على فراق هذه الغرفة ... لن أنسى أنى كتبت فى ظل هذه المرأة الصغيرة صفحات جميلة ... إن ما يخيفنى هو أن ينتهى كل هذا الوهم الجميل بهذه السرعة ، وأن قلبى الذى لا يستيقظ إلا مرة كل عشر سنوات يعود هذه المرة إلى صمته وظلامه ، وهو لم يكد يصحو ويخفق ويفرح ... وكم فى العمر من عشرات السنين ؟ ... وما أمر انتظار أعوام أخرى أجد فيها وقد لا أجد تلك التى تهز نفسى وتوحى إلى ! ... إنك أيها الصديق لن تتصور مقدار أسفى وهمى ... أتظن أنى مستطيع الكتابة هذا العام فى غرفة أخرى وقد اعتدت الحياة فى كنف هذه الصغيرة ؟ ... كم من الزمن ينبغى أن يمضى قبل أن أروض نفسى وقلبى على العمل فى مكان آخر لا أسمع فى جوه تلك الضحكات !؟ ... تحدثنى نفسى أحياناً أن أبقى على الرغم من كل شىء ... إن حياتى الآن

كما قلت لك الساعة جميلة على الرغم من كل شيء ... وحتى إن لم يكن الأمر كذلك فإنى على أى حال غير قدير ... نعم ! ... يا أخى إنى أحس تماماً أنى غير قدير على تغيير هذه الحياة الآن ... ولكن مع ذلك ينبغى لى أن أرحل ... إن نفسى ليست هينة على ، وإن كرامتى فوق كل اعتبار ... فلنذهب أيها الصديق ... ينبغى أن تنصح لى بذلك لقد أنذرت بالإخلاء ، وإنى أعرف نزلا آخر ... وكفى ...

وأطرق صديقى ، ولم يجب ...

* * *

ومرت الأيام ... ورحلت إلى نزل آخر ، هادئ كل الهدوء ... ليس فيه غير حجرتين ... إحداهما التى قطنتها والأخرى يقطنها من زمن شيخ وقور كان فى شبابه ، كما عرفت عنه ، سكيراً مدمناً ، ثم تاب وأطلق لحيته وأمسك بسبحته وأصبح عضواً بارزاً فى جمعية لمنع المسكرات ... وكان بيننا جدار غير سميك أسمع من خلاله سعاله ، وأقول فى نفسى :

« سبحان الذى قلب الضحكة الرقيقة سعالا خشناً ! ... »

نعم ... لم تزل الضحكة الرقيقة ترن فى أذنى ، وصورة المرأة

الصغيرة تتراءى لعيني ... لم أزل فى ظل ذلك الحسن أعيش ، وفى كنف الجمال المتدثر بطهره وبراءته وطفولته أعمل ... وفى ذكرى الجوار القديم بلحظاته السماوية أستمطر الوحى والإلهام ...

وجاءنى صديقى الناشر فى مقرى الجديد ... وما كاد يجلس ويمد منخاره الطويل إلى جدار الحجرة المجاورة متشمماً متنسما ، حتى سمع صوت السعال الخشن ، فأشاح بوجهه فى الحال صائحاً :

— أعوذ بالله ! ...

— نعم أيها الصديق — هذا ما صرنا إليه ! ...

قلتها متنهداً ...

وعاد صديقى ينظر إلى جدار الحجرةالمجاورة مشمئزاً وهو يقول :

— أظن أن خيالك هذه المرة لن يستطيع أن يصنع شيئاً بهيجاً من هذه الحقيقة المرة ! ...

فقلت له :

— ومتى كنت أستطيع أن أصنع من الفسيخ شربات ؟ ...

فقال باقتناع :

— حصل ... جارتك الجميلة صاحبة الضحكة الرقيقة ... لقد عرفتها يا سيدى ...

— عرفتها ؟ ! ...

لفظتها فى صيحة دهشة وفرح وحب استطلاع ... فانطلق صاحبى يقول :

— نعم ... عرفتها وجالستها ورأيتها رؤية العين ... اسمع يا سيدى الحكاية كما حدثت بالضبط : دعانى تاجر الورق الذى أعامله إلى سهرة فى « كاباريه » وهو رجل ملىء مرح « بجبوح » فما كدنا نفرغ من العشاء حتى أقبل شاب وسيم يصحب شابة فى مقتبل العمر ، أجلسها إلى جوار التاجر الموسر وهمس فى أذنه بكلام ، ثم انصرف ... وطلب لها صاحبى التاجر مشروباً ، ثم جعل يغازلها تارة ويحادثها تارة حتى تطرق الحديث إلى سكنها ... فقالت : « كل شىء إلا السكن ، فهى تقطن حجرة فى نزل لا غبار عليه ... صاحبته شديدة الحرص على سمعته ... وسكانه فى غاية الجد ... وجارها الملاصق بالذات رجل محترم الهيئة كأنه فيلسوف أو أستاذ ، لا تدرى ... ولكنه يخيفها بنظراته الغريبة ، ويصدع رأسها طوال الوقت ؟ بموسيقى جدية من «فنوغرافه» لا تفهم منها شيئاً ... فما من مرة سمعت رقصة تانجو أو رومبا أو

سمبا ... بل موسيقى تكسر الدماغ وتغم النفس ؛ لعنة الله عليه من جار سمج ! ... هكذا قالت بالحرف ، ولا تؤاخذنى ! ... وعندئذ تدخلت وذكرت لها اسم النزل وعنوانه ، فأذهلتها المفاجأة وقالت : « كيف عرفت ؟ ... » فقلت لها كالمخاطب لنفسى : « هو أنت . ! ... » واستدرجتها فى الحديث وعرفت كل شىء عنها وكل ما خفى عليك منها .. إنها ليست إيطالية يا عزيزى ، بل هى نوع من تلك الأنواع المختلطة المولدة الغامضة الجنسية التى توجد فى مصر ولا يعرف لها أصل ولا فصل ... قالت إن أبويها المرحومين عاشا فى أزمير زمناً ثم نزحا إلى بلد آخر لا تذكر اسمه ... أما هى فقد ولدت فى إحدى حارات القاهرة ، وليس لها لغة أصيلة ؛ بل هى وجدت ونشأت فى بيئة ترطن لغات جميلة بالسماع والتواتر دون المعرفة الأكيدة ، فهى تتكلم العربية والرومية والإيطالية والفرنسية ، ولا تتقن إحداها قراءة أو كتابة ... وهذا هو سر إعادتها الغلاف الذى أرسلته أنت إليها قالت : تصوروا هذا الجار المجنون الذى يرسل إلىّ نوتة موسيقية وخطاباً فرنسياً لأترجمه إلى الإيطالية ؟ ... أكان يظننى معلمة فى مدرسة ؟! ... » أما مطالعاتها الليلية فلم تكن فى كتاب أدبى أو حتى فى قصة من القصص ، بل كانت فى برامج سباق الخيل

الذى اعتادت المراهنة فيه بما يصل إلى يدها من نقود ... ثم فى مجلات الأزياء و « الموضات » المصورة ... وهى تعيش بمفردها لأنها وحيدة مقطوعة ، لا أهل لها ولا زوج ... أما ذلك الذى زعمت أنه زوجها فهو ولا تؤاخذنى « قوادها » ... وقد اخترعت حكاية زواجه ومبيته عند والدته المريضة بالقلب إلخ ! ... لتموه على البوليس وعلى صاحبة النزل حتى لا تزدريها أو تطردها ... وكانت تتكلم وتضحك ضحكتها التى تسميها رقيقة وهى تمد فمها « بسيجارة » إلى فم التاجر الموسر لتشعلها من سيجارته ... وأنا أتأمل وجهها بألوان المساحيق ... ولكن الطلاء الثقيل لم يستطع أن يخفى آثار جدرى قديم قد أحدث ثقوباً عميقة فى الأنف والخدين والجبين قلت لى : إنها حسناء ... فجعلت همى أن أبحث عن ذلك الحسن ... لا ياعزيزى ... إنه خيالك كان ولا شك أقوى من كل طلاء يمكن أن تكتشفه أبرع مصانع التجميل ! ... وكاد الليل ينتصف ... فمال التاجر على أذن المرأة وهمس لها بكلمات فأشارت برأسها علامة الإيجاب والقبول ... وبادرت تلم أطراف ثوبها استعداداً للقيام ، لم تنس أن تخرج مرآتها من حقيبتها وتعيد صبغ ما انطمس بفعل الشراب والتدخين من أحمر شفتيها ... وغمز لى صاحبى التاجر بعينه غمزاً

فهمت معناه ومرماه ، فأشرت له بيدى علامة النفى والزهد ... ونهضنا ... وشكرته على سهرته ودعوته وتركته عند الباب لأنصرف إلى بيتى ... ومضى هووالمرأة الصغيرة وذراعها تحت إبطه إلى سيارة تنتظر ، لتحملهما إلى حيث يكملان السهرة على الوضع المتفق عليه ...

وانتهى صديقى الناشر من كلامه والتفت إلى ... ولست أدرى : هل لحظ شحوب وجهى ؟ ... ويبدو أنه انتظر منى تعليقاً على حديثه ... ولكنى خفت أن أتكلم فيخوننى صوتى ... فأطرقت وتشاغلت بقلم فى يدى جعلت أعبث به على ورقة أمامى ... إلى أن أحسست نظراته تلاحقنى وتكاد تكشف ما خلته قد ظهر على وجهى من انفعالات مخفاة ... و لم أجد بداً من أن أتفوه بشىء ، فتحاملت على نفسى آخر الأمر ، وحاولت جاهداً أن أجعل صوتى هادئا ، وأن أجرد نبراته من كل غضب وعتب وحزن ومرارة ... ولكنى على الرغم من كل ذلك لم أشعر بنفسى إلا وأنا أصيح به :

ــ لماذا جئت تقول لى هذا الكلام ؟! ...

فهرست الكتاب

صفحة

صحفة







